

أقاصيص وحكايات

بيات الحكمة
بيروت

منشورانا الفطيفة

تضم طائفة من قصص الحياة والناس لفرق من الأدب، المعروفين بعقل المعنى
الجميل في الكلمات الجميلة، فترض أمام القارئ نخبته من أروع الموهوبات
من ماضي الإنسان وحاضره، بين واقعي وخيالي، في إطار من نفاذ العقل، ونبل
القلب، وإبداع الخيال، وبلاغته الأسلوب.

يصدرها: بيات الحكمة - بيروت

١	يا بياح السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود	١٥٠ ق. ل.
٢	أبو الحيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود	١٥٠ ق. ل.
٣	حدثني يا أبي	لكامل العبد الله	٣٠٠ ق. ل.
٤	أمرى الغابة	لانطوان مسعود	٣٠٠ ق. ل.
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود	١٥٠ ق. ل.
٦	يوم عاد أبي	لرشاد دارغوث	١٥٠ ق. ل.
٧	صندوق أم محفوظ	لروز غريب	١٥٠ ق. ل.
٨	جدتي	لجبران مسعود	٢٠٠ ق. ل.
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني	١٧٥ ق. ل.
١٠	عازقة الكمان	لصموئيل عبد الشهيد	١٥٠ ق. ل.
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري	٢٠٠ ق. ل.
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث	١٥٠ ق. ل.
١٣	يوم غضبت صور	لنضال أبي حبيب	٢٥٠ ق. ل.
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث	١٢٥ ق. ل.
١٥	الانامل السحرية	لجوزفين مسعود	١٥٠ ق. ل.
١٦	المعني الكبير	لروز غريب	٢٥٠ ق. ل.
١٧	جلجامش	لتوما الخوري	٣٠٠ ق. ل.
١٨	نور النهار	لروز غريب	١٧٥ ق. ل.
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود	١٥٠ ق. ل.
٢٠	رفين الحناجر	لجوزفين مسعود	١٥٠ ق. ل.
٢١	النجمات	لروز غريب	١٥٠ ق. ل.
٢٢	ابن العروس	لجوزفين مسعود	٢٥٠ ق. ل.
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصر الله	٢٢٥ ق. ل.
٢٤	الغرفة السرية	لصموئيل عبد الشهيد	٢٠٠ ق. ل.
٢٥	النار الخفية	لروز غريب	٢٧٥ ق. ل.

رُوز غَرِيبُ

النَّارُ الْخَفِيَّةُ

أَقاصيصٌ وَحِكَايَاتٌ

بيت الحكمة
بيروت

مكتبة
شاهي

السَّجَّادَة

ها إنَّ أشعة الشمس تكاد تغمر جميع
السُّطْحَة المواجهة للبحر في منزل « سعدى » أمُّ
« جميل » الحدَّاد . وها هي صاحبة الدار تقف بجانب
النافذة تنتظر مرور موزع البريد ، لعلَّه يأتيها بمكتوب
من ابنها المغترب في « البرازيل » منذ ستَّ سنوات . ومع
أنَّ الابن لا يكتب إلَّا مرَّتين أو ثلاثاً في السنة ،
فقد تعودت أن تقف هناك كلَّ يوم قبيل الظُّهر
حينَ مرور الموزِّع . « إِنَّه نشيطٌ وطيبُ النَّفس ،
هذا الموزِّع » ، تفكَّر « أمُّ جميل » وهي تُصغي
إلى خطواته الثقيلة على الطريق المزفَّته . « كلَّ يوم
يمرُّ من هنا على الوقت من غير تأخُّر ، وإذا لم

جميع الحقوق محفوظة لـ « بيت الحكمة »

تأليف: جميل

يأتني بمكتوب فليس الذنب ذنبه .

ثم تُقفَل النافذة وتُسرع إلى المطبخ لتهمك في إعداد غذائها البسيط المؤلف من قطعة لحم ، مع قليل من الخضار الذي ينتجه بستانها الوحيد القائم بجانب المنزل . فإذا انتهت من عملها في المطبخ ، وتناولت طعامها ، لم يبقَ عليها سوى أن تجلس في غرفتها وتستريح ، لأنَّ عشاءها ينحصر في قليل من الجُبْن والخبز والزيتون ، ولا يحتاج إلى تحضير . أما البستان فقد انتهت من تعشيبه وسقييه ، وسيأتي غداً أصحابُ الدكاكين بسِلالهم فتقطِّف لهم ما بقي هناك من البرتقال والليمون الحامض .

الوقتُ ربيع ، وقد أنجزت نكش البستان في الأسبوع الماضي ؛ لكنَّها لا تبخلُ عليه بزيارة في كلِّ يوم لتقطع هنا غصناً يابساً ، وهناك عُشبةً نابتة في الجدران أو في مساقى الأشجار . لأنَّ هذا البستان مصدرُ حياتها ، تزرع فيه كلَّ ما

تحتاج إليه من خضرة وبَقْل ، وتبيع ما ينتجه من أثمار ، فتشتري ما يُعوّزها من مؤونة ، وتخزّن النقود التي تفيض عن حاجتها .

تجلس « أمُّ جميل » بجانب الشباك ، وتراقب براعم الليمون وقد أخذت تتفتَّح وتفوح رائحتها المنعشة . ها إنَّ العيد الكبير على الأبواب ، وعمّا قليل يجب أن تشرع في ما تسمّيه « عزيل العيد » ، أو التنظيفة الكبرى التي تُحدِّثها في بيتها كلَّ سنة . تبدأ بتنظيف الخزائن والصناديق ، فتُخرج منها البُقج والصّرر الملوّنة ، وأكداش الشرّاشف والأغطية والحرامات ، وتمسح الغبار الذي داخل الأثاث ، ثم تعيد البُقج والصّرر والأكداش إلى أماكنها . لكنَّها تلاقى أشدَّ التعب من تنظيف « البوفيه » ، أو خزانة الصُّحون ، لأنَّ هذه الخزانة عالية جداً تكاد تبلغ السقف ، وعليها أن تصعد على الكرسي لتُنزل ما على الرفوف من كبّايات ملوّنة ، وقماقم منقوشة ، وأباريق ، وطُسوت ، وشعدانات فضيّة ، ونراجيل ذات قلوب نحاسيّة ،

وغير ذلك من أشياء ثمينة ورثتها عن أشخاص
كثيرين ماتوا قبلها . ورغم التعب الذي تلاقيه تشعر
بلذة فائقة حين تغسل الأواني الزجاجية بالماء
والصابون ، وتفرك القطع النحاسية بالرممل
والحامض ، وتضعها صفوفًا صفوفًا على السطيحة لكي
تنشف في الشمس وتصبح لامعة كالذهب .

إنها تفرح برؤية هذه الأشياء ، مع أنها لا
تستعملها قط في حياتها . فهي تشرب بإبريق الفخار
وتترك الكبّيات الزجاجية الملوّنة حيث هي ؛
وتنام على شرشف قديم مرقّع وتحفظ الشراشف
الجديدة نظيفة مطوية ؛ وتتناول طعامها لُقمًا
بأصابعها وتترك الملاعق والشوك الفضية ملفوفة
بالأوراق في الجوارير . ذلك لأن « لأم جميل »
فلسفتها الخاصة في الموضوع ، وهي أن الأمتعة
وقطع الأثاث إنما يقتنيها الإنسان ويكدها في بيته
ليستمتع بمنظرها ، لا ليستعملها في قضاء حاجاته !
« كل شيء خير من ابن آدم » ، تردد « أم جميل »

وهي تتذكر أصحاب هذه الأواني الذين ماتوا . « كل شيء
خير من ابن آدم » . لا شك أنها تحب هذه
الأواني لأنها أثبت من البشر وأطول عمراً . هذا
الصندوق الملائن بالبُقع ورثته عن أمها المتوفاة منذ
زمن بعيد . أما « البوفيه » الكبير فقد ورثه زوجها
المرحوم عن أمه العجوز ، ولم يكن فيه إذ ذاك
سوى نصف الأشياء التي فيه الآن ، وما بقي فقد
اشترته هي قطعة قطعة بكدها وتوفيرها . لقد كان
بودّها أن تشتري أشياء أخرى ، وتحقق تلك
الآمال الواسعة التي رافقتها منذ صباها ، ولكن
خانها الحظ وتكر لها الدهر . فمن كان يظن أن
زوجها الحداد ، الضخم الجثة ، الذي كانت ذراعه
أصلب من الحديد الذي يعالجه - من كان يظن أن
الموت سيختطفه بين ليلة وضحاها ، ويتركها وحيدة
كسيرة النفس ، مع أنها كانت دائماً تعتقد أنها ستموت
قبله ، فيتزوج بعدها امرأة تلد له أولاداً كثيرين لأنه
لم يُرزق منها سوى بنت وصبيين ؟ مات أصغرهما
في سن الطفولة ، وتزوجت البنت في سن مبكرة ،

وبقي ابنها الآخر « جميل » وحيداً يمارس الحداثة مع أبيه . وحين رأى الشغل قد تأخر خطر له أن يسافر إلى « أميركا » أسوةً برفقائه من الشبان . وقد توّسل إليه والداه أن يعدل عن السفر ، وحاولا إقناعه حيناً بالبكاء وحيناً بالصياح والتوبيخ ، فلم يقتنع ، بل أصرّ على السفر . ولم يمض زمن حتى تركها وسافر إلى « البرازيل » غير مشفقٍ على وحدتها وشيخوختها . وتوفي الأب بعد ذلك بقليل ، فاصاب المرأة يأساً شديداً ، وكادت تموت من الحزن ، لو لم تجد بعض التعزية في بنتها « أسماء » التي تأتيها كلّ أحد هي وأولادها وتنفق عندها ساعة من الزمن .

لكنّ « لأم جميل » تعزيةً أخرى تجدها في النقود التي جمعتها ممّا توفّره من غلّة البستان ، وممّا تقتّره على نفسها منذ خمس سنوات مضت . ولقد صحّ عزمها ، بعد حيرة وتفكير ، أن تشتري بتلك النقود سجّادةً عجميّة كبيرة تكسو بها معظم

الرّدهة التي في منزلها . قد رأت مثل هذه السجّادة عند جارّتها « أنيسة » ، ومن ذلك الحين لدغتها عقارب الغيرة ، وقرّرت أن تشتري من « بيروت » سجّادة بحجمها فترين بها البيت .

ولو سئلت لماذا تريد السجّادة لحارت في الجواب . إنّها تريدها لتباهي بها أمام الناس ، وليرثها ابنها « جميل » حين يعود من « أميركا » . أمّا بنتها « أسماء » فلم تخطر لها ببال . ولو علمت بنتها بعزمها هذا لرمتها بالجنون وصاحت بوجهها قائلة : « ما حاجتك إلى السجّادة العجميّة ؟ هل يأتي لزيارتك المير بشير ؟ إنّك تحتاجين إلى تركيبة أسنان ، فأنفقي ما لديك على صنع التركيبة ، أو على تغيير أخشاب الدرج الذي تنزلين منه إلى البستان » . ستقول بنتها هذا وغيره ، ولا شك أنّها مُحقّة في ما تقول . فإنّ « أم جميل » بحاجة إلى أشياء ضروريّة قبل مشتري السجّادة : إنّها تحتاج إلى تركيبة ، وإلى درج خشبيّ جديد بدل الدرج المهْدَم الذي بجانب البستان ، وتحتاج

إلى معطف للشتاء ، وطرحه جديدة ، وحذاء ،
وأشياء أخرى كثيرة . ومع هذا فهي تتناسى كل
حاجاتها لتوفر ثمن السجادة . منذ بضعة شهور ،
إذ كانت تنزل الدرج الحشوي ، انكسرت إحدى
الدرجات تحتها فوقعت وكسرت يدها ، وتألّمت من
الكسر مدّة طويلة . ومع هذا لم تفعل شيئاً سوى
ترقيع الدرجة المكسورة ، لأنها لا تريد أن تنفق
شيئاً ممّا اقتصدته ثمناً للسجادة !

*

أقبل العيد الكبير ، وانتهت « أم جميل » من
تنظيف البيت ، فمسحت غبار الجدران بسعفة
النّخيل ، وشطفت الأرض والاعتاب ، ونظّفت
قطع الأثاث ، حتى أصبح كل شيء حولها نظيفاً
لامعاً يُبهج العيون . وفي المساء عدّت تقودها التي في
الصرّة ، فإذا هي تبلغ نحو ثمان مئة ليرة ، أي أنّها
تزيد على الثمن المطلوب .

وما جاء صباح العيد حتى فاجأت زوّارها
بسجادة عجميّة كبيرة فرشتها في ردهة المنزل .
وحين سألوها : « من أين لك هذه السجادة ؟ » أجابت
أنّ ابنها أرسل إليها كمّية من المال لكي تشتريها من
« بيروت » .

ظلت « أم جميل » مدّة من الزمن مأخوذة بجمال
السجادة : تنظّفها كل صباح بمكنسة خاصّة ،
وتجلس ساعات طويلة تتأمل نقوشها وألوانها ،
وتخاف أن تدوسها برجليها ، فإذا جاء أولاد بنتها
لزيارتها منعهم من دخول الردهة ، وجعلتهم يدخلون
البستان من الباب الخلفي لئلاّ يروا بجانب السجادة
أو يلامسوها بأرجلهم . وأرسلت إلى ابنها تخبره
بمشتري السجادة العجميّة الكبيرة ، وتتمنّى
أن يعود قريباً إلى الوطن لتريه إيّاها ، وتقضي
وإيّاها بقيّة عمرها .

وورد إليها جوابه بعد قليل ، فأخبرها أنّه

مريض ، وأنه ينبغي العودة إلى الوطن ، لكنّه
مفلس ؛ ويطلب منها أن ترسل إليه نقوداً ليستطيع
العودة .

بكت « أمّ جميل » ليلة وصول الكتاب ،
وذرفت دموعاً لم تذرفها منذ وفاة زوجها . عليها
أن ترسل إلى ابنها المبلغ الذي يطلبه ، أي إنّ عليها
أن تبّيع السجّادة التي أنفقت السنوات العديدة في
جمع ثمنها وحرمت نفسها أشياء ضرورية ! لكنّ
الأبناء لا يُعدّون برزق ولا بمال . يجب أن يعود
ابنها مهما كلفها الأمر ! وستعيش وإياه قانعة
بالكفاف ، وستعوّضها رفيقته عن كلّ خسارة .

في الصباح الباكر ذهبت إلى «بيروت» في البوسطة،
وباعت السجّادة وأواني أخرى نفيسة ممّا خزنته في
بيتها ، فاجتمع لديها نحو ألف ليرة أرسلتها إلى
ابنها . ولبثت تنتظر جوابه .

وانتظرت طويلاً قبل أن جاءها الجواب ، وفيه



أنّ ابنها شفي وتحسّنت أحواله الماليّة ، وهو
ينوي الزواج بفتاة برازيليّة ، ولا يدري متى يمكنه
الرجوع إلى الوطن ...

*

مرّت السنون ، وانقطعت مكاتيب الابن من
« أميركا » . وتهدّم الدرج وتهرّأت أخشابه . وأخذت
« أمّ جميل » « تدور الدّورة » لتصل إلى البستان ،
أي تدخله من الباب الخارجيّ المطلّ على الزُّقاق .
وتغيّرت معالم الأشياء في بيتها ، وعبثت بها أيدي
السنين .

ولكنّ في زاوية خفيّة من زوايا البيت صرّةً
صغيرة ، تفتّحها « أمّ جميل » مرّة أو مرّتين في
الشهر لتعدّ ما فيها من نقود ، وتعاين تضخّمها
البطيء في خلال السنة . لأنّها ما تزال تؤمّل بمشترى
سجّادة جديدة !..

... وَتَحَطَّمَتِ الصَّنَمُ !

باكرًا رنّ جرس التلفون في غرفة السيّدة
« جهان » ، صاحبة « المشغل العصري » للخياطة
والتطريز القائم في إحدى ضواحي « بيروت »
المزدحمة بالسكّان . إنّها الساعة الثامنة من صباح
الأحد ، وهي لا تزال في فراشها . لقد صمّمت على
أن تأخذ لنفسها قسطاً من الراحة في هذا النهار
بالذات ، بعد أسبوع حافل بالنشاط تكاثرت فيه
الأشغال التي كان عليها إنجازها قبل عطلة الأسبوع ،
فاضطرتّ إلى إرهاق نفسها بالعمل ، وإرهاق البنات
العاملات عندها .

وأعاد الجرس رنينه ، فأمسكت السمّاعة

وقالت : « آلو » .

وما إن سمعت الصوت الذي خاطبها من الطرف الآخر حتى بهتت وانعقد لسانها ، فلم تدرِ بمَ تجيب . أخيراً استطاعت أن تقول بصورة آليّة ، ومن غير تفكير :

— طيّب . أنتظرَك اليوم بعد الظهر .

كانت هذه العبارة جواباً عن سؤاله : « أيمن أن أراك اليوم يا « سُومة » ؟ »

« سُومة » ... منذ عشر سنوات لم ينادها أحد بهذا الاسم !

كانت في بيت أبيها تدعى « سميّة » ، وكان والداها وأخوها « سميح » ينادونها « سُومة » تحبباً ... والآن ، ها هو الاسم يعود بعد عشر سنوات ، بل أكثر من عشر ، يبعثه أخوها حياً على أسلاك التلفون . إنه هو . صوته لم يتغيّر . هذا الصوت الدافئ

الذي يوحى بالثقة ، لا يزال دافئاً عميقاً ؛ لكنّها تبَيَّنَت فيه أثر السنّ ، وفارقَه ذاك الصفاء القديم ، صفاء أيّام الشباب .

ماذا يريد منها بعد هذا الفراق الطويل ؟ أين هو الآن ، وكيف عرف بمقرّها ؟ ترى ، هل أصاب من النجاح ما كان يصبو إليه في صغره ، حين كان يحدثها عن نجم الحظّ ، نجم السعادة ، النجم الذي كان يؤمن به « نابليون » ، معبودها أيّام الحداثة ؟ كانت حينئذٍ ساذجة غبيّة تعيش في جوّ من الأحلام ؛ كانت تبتهج بقصص « نابليون » و « عنتره » و « وروكامبول » و « مونتي كريستو » و « جاك ميلن » ، تتحمّس لها مثل « سميح » أخيها ، بل أكثر منه . ويجمع بها الخيال فتتمثّل أخاها واحداً من أولئك الأبطال الذين لم نجمهم في التاريخ . كذلك سيلمع نجم أخيها ، ويستمرّ في الصعود ، لأنّه نظيرهم يؤمن بنجمه ، وعلى مثال « نابليون » يراه متألّقاً في العشايا ! ..

وخطر ببالها السؤال : ترى ، لماذا لم تفكّر في

نفسها حينذاك ؟ لم تحلم بأنها تستطيع أن تحتذي
واحداً من أولئك الأبطال الذين عمروا مخيلتها
الخصبة . كانت كل أحلامها عن أخيها الذي يأتي كل
يوم بحديث جديد ، أو بكتاب جديد يقرأه معاً
ويتبادلان انطباعاتها عنه ، وما أكثرها !

كان أحب الكتب إليها كتاب الثورة الفرنسية
الذي نقله « فرح انطون » عن « دوماس » . بلغ من
شغفها بذاك الكتاب ذي المجلدات الثلاثة أنها قرأته
مرتين ، ثم مرة ثالثة . وفي أحد الأيام عاد أخوها
إلى البيت فرآها أمام المرأة ، وقد التفت بردائها
الكستنائي ، وعقدت حول عنقها ربطة ضخمة ،
وحملت عصا طويلة شبيهة بالرمح . كانت تمثل دور
واحد من أبطال الثورة ، لعلّه « ميرابو » ، أو
« روبسبير » . وقد أجادت تقليد زِيّ العصر ،
لأنها كانت بارعة في الخياطة والأشغال اليدوية ،
تبزُّ فيها رفيقاتها في المدرسة . أمّا الأخ فارتسمت
على شفّته حين رآها ابتسامة هازئة ، وكبت

ضحكة خشنة امتعضت لها « سميّة » . لماذا يهزأ بها ؟
ألم يكن مثلها متحمساً لكتاب « دوماس » ؟ لكنّها
سكتت وكتمت استياءها .

ولعاً معاً بجمع الطوابع البريدية ، وكانت فترة
من عمرهما أنفقاً فيها كل دقيقة فراغ في السعي
وراء الطوابع : يطرُقان أبواب الجيران والأصحاب ،
ينبُشان في سلال المهملات ليكتشفا الغُلف التي لم
تنزع طوابعها ، يركضان إلى آخر الدنيا ، يقومان
بكل خدمة مهما كانت شاقّة للحصول على طابع ثمين
وعدهما به أحد الأقارب أو المعارف .

حدّثها « سميح » مرة أنه سيزور ، مع رفقاء له
من هواة الطوابع ، رجلاً طاعناً في السن يملك
مجموعة كبيرة منها . وعاد بعد تلك الزيارة فأراها
بضعة طوابع نسلها من المجموعة في غفلة من
صاحبها الحسير البصر . فوجمت برهة وأخذت
تفكّر : أيجوز للهواة أن ينشُلوا الطوابع ؟ وهل
يجوز لمقتري الكتب أن يتناسوا ردها إلى

أصحابها ، أو للمارة أن يقطفوا ثمار البساتين المجاورة للطريق ؟ وأخذت تتأمل في الطوابع الجديدة ، فقد كانت جميلة نادرة ! أمّا والداها فابتسما استحساناً أو استخفافاً .

في أحد الأيام اختفت المجموعة التي كلفها جمعها وتنسيقها جهوداً ومشقات جمّة . ماذا حدث ؟ أخبرها أنّه أعطاهما لأحد أصحابه . كيف ؟ ولماذا ؟ ومن غير مشاورتها ؟

لقد بكت كثيراً ، وتألمت كثيراً ! كانت هذه الطوابع جزءاً من حياتها ، بذلت لأجلها من نشاطها ومن وقتها دون حساب . فكيف يتصرف بها دون علمها ؟ أتراها باعها ؟ هل أعطاهما لأحد أصحابه مقابل هدية ؟ لم يذكر لها البيع ، ولا الهدية ، ولكن ... أخذت تخامرها الشكوك . وظلّت مدة تفكّر وتتألم في سرّها ، ولم يخطر لها أن تناقش أخاها الحساب على تصرفه هذا . وحاولت أن تنسى الموضوع بطلاعة الكتب التي أهداها إياها جار

مسنّ كان يجد في لعبة « الدريس » هوايته الكبرى ، ويرى في الكتب « صناديق محشوة بالخرافات » .



وترّ الأيام سراعاً . أصبح أخوها شاباً فارح الطول ، مستطيل الوجه ، إذا وقفت بجانبه لم يكذب يبلغ رأسها كتفه . أخذ يُكثر من مخالطة رفقاته الشبان ، ويغيب عن البيت أياماً ، ويقتصد في محادثتها ؛ لكنّها قنعت بمجالسته ساعات قليلة خلال الأسبوع ، وظلّ الرفيق الذي تُفضي إليه بخواطرها ، ويبادها أحلامه وانطباعاته . كان ينقل إليها أخبار رفقاته وآراءه فيهم : « نديم » كاذب محتال ، وابن عمّه « فؤاد » يطلب الرزق من أيّ باب كان ، و « سليم » كثير الغرور والادّعاء ، يحلم بفتح العالم ، وأحلامه هباء . كانت تصغي إلى كلامه وتستخفّ بأولئك الرفقاء ، وترى في أخيها الفتى المتفوّق الذي لا يدانيه أحد من أترابه في الذكاء وصدق النظر . لعلّ شعوره بالتفوّق أوحى إليه إيمانه بالطبقيّة ،

وميلَه إلى السُّخْر من الناس ، واحتقار من يظنّه
دونه في الذكاء أو المنزلة الاجتماعيّة . أمّا هي فكانت
ترى الناس من طينة واحدة ، لا يتمايزون إلّا
بالأخلاق . وطالما حاولت تبديل نظرتِه الضيّقة فلم
تنجح .

لا تنسى حين قرّع نافذة غرفتها ليلاً ، فخافت
وكادت تصرخ من الرعب ، فهتف بصوت هامس :
- أنا « سميح » . افتحي لي الباب ، وإيّاك أن
توقظي النائمين .

لقد عاد من سهرة طويلة في أحد المقاهي ،
وكتمت أمره عن والديه مقابل وعده إيّاها بأن لا
يعود إلى مثل تلك السهرة . كانت ليلة من ليالي
الأعياد ، وقد أغراه بعض رفقاته بمصاحبتهم للسكر
والمقامرة . لكنّه تاب توبة صادقة بعد أن عاد فارغ
الجيب ، وأصيب في اليوم التالي بوعكة ألزمتَه
الفراش . كان يشكو التهاباً في حلقه ومعدته ،
ويزعم أنّه لن يشفيه سوى الماء الثلج ، فذهبت إلى

آخر البلدة لتبتاع له مقداراً من الثلج دفعت ثمنه
من جيبها .

كم مرّة أقرضته ما لديها من نقود قليلة كسبتها
من بيع أشياء قديمة تخصّها ، أو من حياكة ملابس
صوفيّة ، أو صنع أقمشة مطرّزة ! كان يتظاهر
بأنّه يريد ردّ النقود ، ويطلب إليها بإلحاح أن تقبلها
منه ، وهو عالم بأنّها لن تقبلها . ولو قالت نعم
لأسقط في يده ، لأنّ جيبه كان فارغاً ؛ وكانت
تعرف ذلك ، فتصطنع الرفض لتمكّنه من اصطناع
الوفاء .

حين بلغت العشرين جاءها بعض الخاطبين . كانوا
يتصلون بوالديها ، أو يرسلون بعض أقاربهم لخطبتها .
وقرّر رأيها يوماً ، بالاتّفاق مع والديها ، على أن ترضى
بواحد منهم ؛ لكنّها سمعت أخاها يقول :

- من هو هذا الرجل ، وما الذي يُعجبكم
فيه ؟ ... مادّي ، طمّاع ، طالب مال ، كلّ رغبته
في البائنة لا في « سميّة » ...

ورُدَّ الطالب على أثر هذه التهمة . ثم كان مرض أبيها الطويل ووفاته المؤلمة . لقد خيم الحزن على الأسرة ، واجتمعت قلوبهم على البكاء والحداد . وفي غمرة حزنهم ترمى إلى سمع الفتاة خبرٌ نزل عليها كالصاعقة : كان أخوها قد اتفق مع أحد المحامين ، ومع فريق من أعضاء الأسرة ، على إخراج وصية تحرمها إرث أبيها !

أصيبت على أثر ذلك بحُمى في رأسها كادت تؤدي بها . ظلت مسمرة على فراش المرض طوال شهر ، فاقدة الوعي ، دائمة الهذيان . وفارقتها الحمى بعد أن تركتها ضعيفة السمع ، مشلولة اليد اليسرى . وأفقت لترى كيف تحطم الصنم في يديها ، وانهار المثل الأعلى . وشعرت أنها وحيدة عزلاء ، فأصابها شبهٌ ذهول أنقذها منه رجوعها إلى المطالعة . هذه الكتب التي جنت عليها فيما مضى ، إذ عزلتها عن المجتمع وأغرقتها في دنيا الحلم ، كانت لها خشبة النجاة ؛ طالعت فيها قصصاً وتأملاتٍ شددت من عزمها ،



وأعادت إليها نشاطها وثقتها بنفسها ؛ قرأت عن
أفراد تعذبوا عذاباً ، ثم نهضوا واتخذوا من الضعف
قوةً ، وواجهوا الألم بالتحدي .

وخرجت من البيت وفي قلبها حقدٌ دفين . لم
تلتفت إلى الوراء ، ولم تكلم أحداً ، بل لجأت إلى
أحد الأديرة النسائية حيث تسلّمت إدارة صفوف
الخيطة والتطريز . ولمّا اجتمع لديها مقدار من
المال فتحت مشغلاً على حسابها ، وراج عملها رواجاً
غريباً . أصبح عدد العاملات عندها يزيد على العشر ،
وعرفها زبائنّها باسم السيّدة « جهان » .

★

مرّت حوادث حياتها أمام عينيها كشريط
سينمائي . استعرضت ماضيها بذكرياته العذبة المريرة ؛
هذا الماضي الذي طمرته بيدها ، وأسدت عليه ستار
النسيان ، ها هو يقرع بابها من جديد !

ماذا يريد منها « سميح » ؟ أترأه يريد أن يحدثها
مرة أخرى عن جشع الرفقاء واحتياهم ونفاقهم ؟

أريد بَعثَ ذكريات لم تورثها سوى الحسرة والهم
والشقاء ؟

لقد أخطأت في وعدها باستقباله حين خاطبها على
التلفون ؛ ولو فكّرت لكان جوابها رفضاً . لقد
غفرت له كثيراً فيما مضى... كان ذلك عهداً ذهب...
وهيئات أن يعود !

أيمكن أن تغفر له الآن ؟

الحقيّة

كان اليوم صافياً ، مشرقاً ، يُشيع في الناس
الدّفء والبهجة . لكنّها لم تجد فرقاً بين هذا اليوم
وغيره ؛ فأيامها - هي - واحدة في رُتوبها وقُتومها .
ولا تذكر في حياتها الماضية أيّاماً مشرقة كالتي
تطبع على وجه غيرها من الفتيات ابتسامة الأمل
والرضى .

لقد انتهت إلى الاعتقاد بأنّ ليس في الحياة
سعادة ، واطمأّنت إلى آراء الكثيرين من الكتّاب
والمفكرين الذين جاهرُوا بأنّ السعادة وهمٌ وخيال ،
فوجدت في أقوالهم عزاء ... أتراها أحكم منهم وأكثر
تجربة ؟

السيارة تنساب بها حثيثاً على الطريق المعبّد
الذي يحاذي الشاطئ الجميل . ونسيم الصباح يصفع
وجهها ويداعب شعرها . لكنّها لا تشعر به ، ولا
تحفّل بما حولها من مظاهر نشاط أو سكون .
بجانبتها في السيارة رجلان قد غرقا في صمت عميق
كأنهما أخذتا بسحر هذا الصباح وجلاله ؛ لكنّها لم
تلتفت إليهما ، بل أغمضت عينيها واستسلمت لأفكارها ،
لعالمها الداخلي ، وكأنّها تودّ أن تُقيم حجاباً بينها
وبين الناس .

وما يعنيه من أمر هؤلاء الناس ؟ فهي منذ
طفولتها لم تكن بينهم إلّا غريبة . لماذا ؟ ... طالما
سالت نفسها هذا السؤال . منذ أخذت تلاحظ الأشياء
حولها ، أحسّت بهذه الغربة ، واختبرتها حتى
صارت عندها شيئاً مألوفاً . عاشت غريبة في بيت
والديها لأنّها لم يُعيرها أيّ اهتمام ؛ فهي واحدة من
خمسة أولاد ، بنتين وثلاثة صبيان ؛ وأيّ شأن
لبنت عادية الشكل في أسرة فقيرة كثيرة العدد ؟ !

ومع هذا كانت تقوم في البيت بأشقّ الأعمال ،
وتتعب لأجل والديها وإخوتها ، من غير أن تنتظر
منهم كلمة عطف أو شكر . فقد قيل لها إنّها مدينة
لهم بوجودها ، ومهما فعلت لأجلهم ستظلّ عاجزة
عن مكافأتهم ... كان ذلك عهداً ومضى ... إنّها اليوم
تسخر من هذه الأقوال ، ولا تجد في الوجود الذي
منحها إياه نعمة تستحقّ الشكر .

على أنّها ، في علاقاتها مع الناس ، لم تكن أسعد
حظاً . كان عملها في التطريز مدّة سنة شبيهاً
بالسُّخرة ، وكان أبوها يقبض أجرتها في آخر كلّ
شهر ، نصف ليرة عن كلّ يوم شغل . ثمّ قيّض لها
دخول مدرسة تعمل فيها أكثر الوقت في التطريز
ورفء الثياب ، وتدرس في ما بقي منه . ومع هذا
استطاعت أن تبرع في الحساب ، وأن تحذق
الفرنسيّة في ذلك المحيط المستغرب ، حتى كلّفتها
صاحبة المدرسة تعليم بعض الأولاد في أوقات فراغها .
كلّ هذا من غير مقابل . فرضيت ولم تقل شيئاً ،

لأنها وجدت لذة في المسؤولية . أخيراً سلّمتها أحد الصفوف الأولى مقابل أجره لا تساوي أجره واحدة من الخادّات ، ورضيت الفتاة لأنها ما تعودت قبل هذا أن تفكر في الأجره ، بل كانت عملها حتى الآن بذلاً وخدمة وعطاء سَمحاً . وأكّبت على عملها بحماسة الصّبّا واندفاعه مدّة سنتين متواليتين ، جمعت فيها مقداراً زهيداً من المال دفعته إلى أبيها ، بعد أن قَتّرت على نفسها في شراء الكُسوة وسواها من أشياء .

وفي بعض زياراتها « لبيروت » لشترى حاجاتها لقيت إحدى المعلّّات في مدرسة هناك ، فبدأ بينهما عهد صداقة أدّى إلى انتقالها من مدرستها القروية إلى مدرسة هذه الفتاة ، لأنّ المديره رضيت بأن تعطّيها راتباً يساوي ضعفّي ما كانت تتناولها في المدرسة الأولى . فأدركت المسكينة أنّ تلك المديره الأولى كانت تستثمرها بغير علمها . لكنّ عملها الجديد أنساها الغبْن القديم . وشعرت بأنّها مدينة

لتلك الصديقة ولمديرتها الجديدة التي أنقذتها من الغبن والاستثمار ، فراحت تعمل دائبة جاهدة سنة بعد سنة ، والأيام لا تزيدّها إلّا تعلّقاً بصديقتها ومدرستها . حتى عرفت يوماً من إحدى معلّّات المدرسة أنّ الأجره التي تتناولها هي نصف ما تتقاضاه المعلّّات اللواتي يَقمّن بمثل عملها ولا يَفْقُنّها في المستوى الثقافيّ ! ففهمت أنّها وضعت ثقتها في أناس لا يستحقّون الثقة ، وعرفت أنّ صديقتها قد خانتها وعبثت بها .

وحين جاءت البيت آخر مرّة لقضاء عطلة العيد ، دخلته وفي نفسها لهفة وحنين ، وأملُ بأن تجد هناك بعض الراحة وبعض العزاء ، كأنّها نسيت الماضي : نسيت أنّها ما أقامت هناك بعض أيام العطلة إلّا تأقت إلى انتقضائها وغادرت البيت قبل انتهائها . وها هي الآن تعود ولما تنتهِ العطلة ، تعود وفي نفسها خيبة جديدة وأمل محطّم ... لقد وعد أبوها بأن لا يَمَسَّ شيئاً من معاشها الجديد في المدرسة

الجديدة ، بأن يبقي دراهمها في الخزانة حيث تركتها
ملفوفة في المحفظة الصغيرة . وها هو يُخلف بوعدة
فيمدّ يده إلى المال ولا يبقي على شيء منه ، زاعماً
أنه احتاج إليه من أجل إخوتها ومن أجل تجارتها .
طبعاً لم يجد حرجاً في خلق الأعذار ! أمّا هي
فلم تنبِس بنت شفة ، بل قامت في الصباح الباكر
كعادتها ، وجمعت أشياءها وثيابها وكلّ ما كانت قد
تركتها في البيت . وضعت ذلك كلّ في حقيبتها
الجلدية الضخمة ، وأضافت إليها رواتب الأشهر
الثلاثة الأخيرة ، وهي كلّ ما تبقى لها من عمل
خمس سنوات أو أكثر . جعلت هذا المبلغ في المحفظة
الصغيرة التي وجدتها فارغة في الخزانة ، ثم أدخلت
المحفظة في أحد جيوب الحقيبة التي وضعها السائق
في صندوق السيارة . هذه الحقيبة هي كلّ ما بقي
لها في الوجود ! وحانت منها التفاتة إلى وراء
كأنها تريد الوثوق من أنّ الصندوق ما يزال محكّم
الإغلاق ، وأنّ حقيبتها ما تزال في مكانها لم يُصبها
شيء . لكن ، في هذه اللحظة عينها ، وقفت

السيارة وتحرك الركاب للنزول . لقد بلغت
« بيروت » من غير أن تشعر بمرور الوقت . ونهضت
من مكانها كأنها تستيقظ من حلم مزعج ، وفركت
جبينها تحاول أن تستعيد وعيها كاملاً . وإذا بالسائق
يُنزل حقيبتها الكبيرة فيرميها على الرصيف الضيق ،
ويطلق لسيّارته العنان وهو لا يُلوي على شيء .

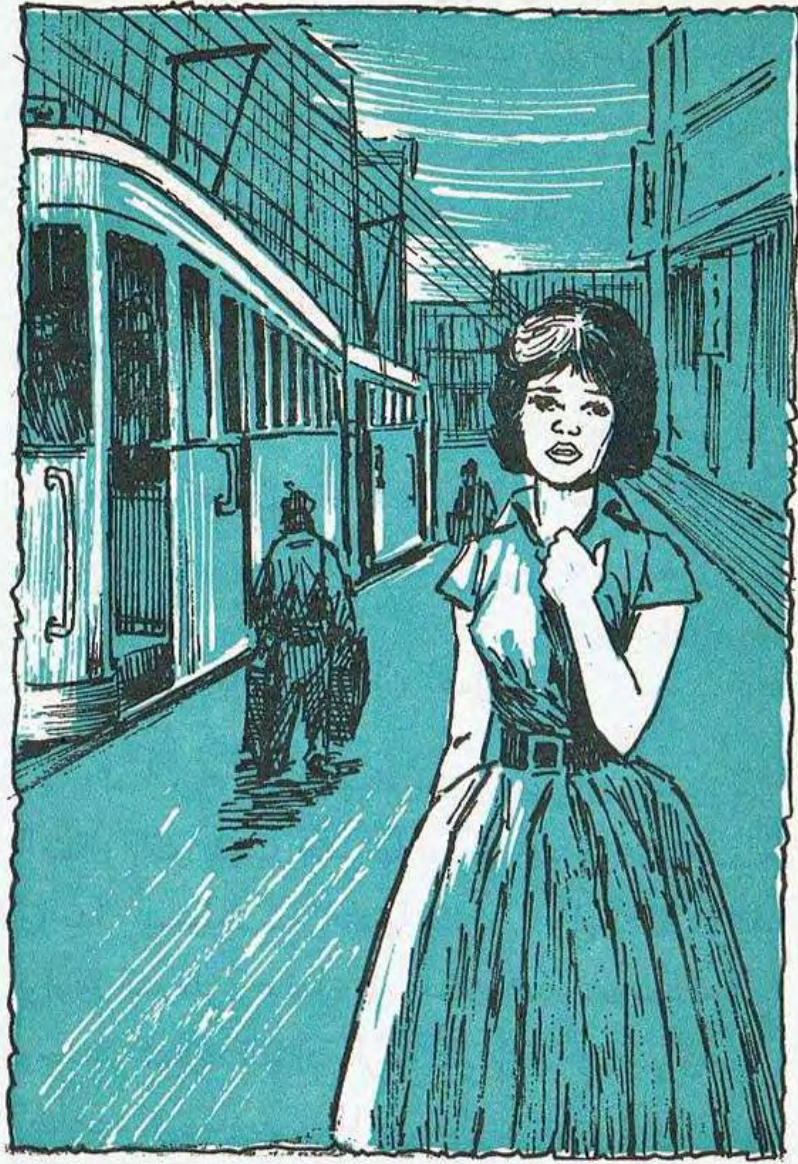
كان الرصيف مزدحماً بالمارة والباعة . فوقفت
الفتاة مرتبكة ويدّها على الحقيبة ، ثم تطلّعت
حوها تبحث عن عتال ، فظهر لها على بعد بضعة
أمتار من مكانها عدد من العتالين مجتمعين حول
سيّارة شحن هائلة الحجم ؛ فأشارت إلى واحد منهم ،
وكان شيخاً أبيض الشعر ، أعمش العينين ، يرتدي
الأسمال :

- تعال من فضلك احمل لي هذه الشنتة إلى ترام
« البرج » . سأطلع وإياك في الترام وأدفع عنك
الأجرة إلى محطة « غراهام » .

ومشياً وسط الزحام . وما بلغا ساحة « البرج »
حتى أبصرا الترام قادماً ، فصاحت الفتاة :

- هيا ! تعال ! لنصعد بسرعة قبل أن يمضي
الترام .

وخيل لها أنه سعد بين الصاعدين ، الهاجين
على الترام هجوم الذئب على الفريسة ؛ فشقت
لنفسها طريقاً بينهم وصعدت ، وأخذت تتلفت
باحثة عن العتال فلم تقف له على أثر ! وتابعت البحث
والتفرس بعينها الحادثتين . وما إن أكّدت أنه لم
يكن في الحافلة حتى اندفعت خارجاً وهي تشقّ
طريقها مرة أخرى ، ورمت بنفسها إلى الشارع
والحافلة تتحرك للمسير . وأخذت تتفرس في
وجوه الواقفين والمارين على الرصيف وفي كل مكان ،
فلم تجد بينهم العتال ؛ فتسارعت نبضات قلبها ،
وأحست بدوار يكاد يصرعها أرضاً . لكنّها
تمالكت وأخذت تركز كالمجنونة نحو مخفر « البرج » .



ولا تدري كيف قصّت حكايتها على الشرطيّ ؛ ولمّا
رأت منه برودة واستخفافاً أخذت تتوسّل إليه بأن
يصحبها للتفتيش عن العتّال .

فهزّ الشرطيّ رأسه وأخذ يسألها :

- هل تعرفين اسمه ؟

- لا .

- هل تعرفين رقمه ؟

- لا .

- إذن ماذا تريدن أن أعمل ؟

ولمّا رآها تهتمّ بالبكاء مشى معها إلى حيث كان
العتّال الذي ذهب بحقيبتها ، فلم تجد من رفقائه
واحداً يستطيع إفادتها بشيء . وفي هذه الأثناء
توارى الشرطيّ عائداً إلى مكان عمله . ومضت هي
وحدها كسيرة الفؤاد فارغة اليدين . في يوم واحد
أضاعت كلّ ما بقي لها من مال ومتاع ! ولو بقي

لها أحد تثق به أو تشكو إليه لهان الأمر ، لكنّها
فقدت ثقتها في أقرب الناس إليها ، فلا عجب أن
يسرقها هذا العتّال الغريب ويهرب بحقيبتها .
وصعدت حافلة الترام متثاقلة تكاد تتساقط إعياء
ويأساً ، وتهالكت على أحد المقاعد . وحين صرخ
قاطع التذاكر : « محطة غراهام » ، قفزت كمن لدغته
جمرة . ولكن ما بلغت الرصيف حتى جمدت في
مكانها كالمصعوقة : لقد كان العتّال الأشيب الأعمش
العينين جالسا على حجر هناك ينتظرها ، وبجانبه
حقيبتها الضخمة !

وطفر الدمع من عينيها ، فلم تستطع الكلام في
باديء الأمر . ثم تقدّمت منه وقالت :

- ماذا حدث ؟ وكيف وصلت إلى هنا ؟

فقال بصوته الذي تُمازجه بحّة الكبر :

- رأيت حافلة الأمام مكتظة بالركاب فصعدت

في حافلة الوراق، ونزلت عند محطة غراهام كما قلت .
وما زلت منتظراً ...

لم تعرف كيف تعبّر لهذا الرجل عن شكرها
وتأثيرها . وبجربة عفوية أقبلت عليه كأنها تودّ
تقبيله ، لكنّها أحجمت ، وفتحت جزدانها الصغير
وأعطته كلّ ما وجدت فيه من قطع نقدية صغيرة ،
بين ليرات وأنصاف ليرات وأرباع وعشرات
غروش .

وكان بين أمتعتها رزمة وضعت فيها عدداً من
الأرغفة وقطع الحلوى والفواكه اشترتها من الدكان
في القرية ، فدفعت إليه بالرزمة وبكلّ ما فيها .

وإذا بصوت ينادي :

— « عبد » ، يا « عبد » !

فالتفتت ، ورأت عتالاً يقف في الجانب الآخر
من الشارع ويردّد مخاطباً الذي بجانبها :

— « عبد » ، يا « عبد » ، أيها الأبله ! أين كنت
مختفياً هذا الصباح ؟ لقد سألت عنك الخواجا « محسن »
عدّة مرّات لنقل الأكياس . أين كنت أيّها
المغفل ..؟

يَكْدُ الْقَدَر

جلست «وداد» على شرفة منزلها منهمكة في
تطريز الفستان الذي ستلبسه يوم عرس صديقتها
«أسماء». هي الآن وحدها في المنزل ، لأن والدتها
ذهبت لتزور والد «أسماء» ، ولتستطلع أخبار
العرس المقبل ، جرياً على عاداتها في كثرة الفضول .
وكان تقدمها في السن لم يزدّها إلاّ فضولاً ورغبة
في الزيارات ، تجد فيها مصرفاً لعواطفها ، ووسيلة
لإرواء عطشها إلى أخبار الناس .

وألقت «وداد» نظرة على بيت «أسماء» الذي لا
يبعد عن بيتها إلا قليلاً . «أسماء» ، عشيرتها
وصديقتها منذ الطفولة ، رفيقتها في المدرسة

وخارجها ، التي أنفقت وإيّاها مُعظم أوقاتها ،
وشكت لها أفراحها وأتراحها ، ستفارقها خلال مدّةٍ
وجيزة لتقترن بخطيبها « وفيق » ، بعد خطبة دامت
عدّة سنوات .

جلست « وداد » مجتهدة في تطريز الثوب وهي
تتصوّر يوم العرس : ستظهر « أسماء » جميلةً في
ذلك اليوم ، وقد يكون ذلك لأوّل مرّة في
حياتها ، لأنّ الفرح يزيد الوجه إشراقاً ؛ ولا بدّ
للثوب الجميل الذي خاطته في « بيروت » أن
يحدث تأثيره . ولكنّ ... من يشكّ في أنّ « وداد »
التي ستقف بجانبها ستكون أجمل منها بما لا يُقاس ؟
إنّها تعرف هذا وتؤكّده لنفسها ، لأنّ الناس ما
تحدّثوا مرّة عن « وداد » إلّا نعتوها بالجميلة ، وما
مشّت مرّة بجانب « أسماء » إلّا ظهر الفرق بين
الفتاتين : فهي طويلة ، شقراء ، دقيقة الملامح ،
ورفيقتها قصيرة ، قاتمة اللون ، غليظة الشفتين .
ولكنّ لا عجب أن تتزوّج « أسماء » قبلها ، فصديقتها
تكبرها بسنتين أو أكثر ؛ وهي ، فضلاً عن هذا ،



ذاتُ ثروة ترثها من والدها ، بعكس « وداد » ...

لقد شاءت الصّدَف أن تكون « أسماء » وحيدةً أهلها وورثتهم ، في حين أنّ « لوداد » إخوةً ينفق الوالدان عليهم جميع دخلها ، فلا يبقى للفتاة أيّ أمل في الحصول على بائة أو جهاز أو مال يجذب الخطّاب وربّما فكّر بعض الشبّان الفقراء في خطبتها ، لكنّ لها أمّاً عنيدة لا تزوّجها بفقير . وهي ، لهذا ، آلت على نفسها أن تصبر وتجارى أمّها ، وتنتظر الفرَج يأتيها من خطيب غنيّ يُرضي كبرياء والديها ، ويحقّق رغبتها في العيش المترّف .

عجباً !.. كيف تختلف الحظوظ عند ريفيتين متقاربتين في السنّ ، متشابهتين من وجوه كثيرة ، لفرقٍ بسيطٍ خطّته بينهما الأقدارُ : أنّ إحداها وحيدة ، والأخرى ذات إخوة ؟!

على أنّ « أسماء » - رغم المركز الفريد الذي تحتله ، ورغم تسابق الشبّان إلى خطبتها - لم تبلغ أمنيّتها بسهولة . ولو كانت « وداد » مكانها لتزوّجت منذ عهد بعيد . لقد مات والد « أسماء » شابّاً ، وعاشت

الفتاة في ظلّ أمّ صعبة المراس لا تقفأ شاكية متبرّمة . وقد تكاثر طلاب الفتاة منذ أن بلغت السادسة عشرة ، لكنّ الذي أعجب « أسماء » لم يُرض أمّها ، والعكس بالعكس . فالأمّ تريد صهرًا ذا مركز اجتماعيّ مرموق ، لطيف العشرة ، حسن الملائنة ، تستطيع السكن وإياه تحت سقف واحد . أمّا « أسماء » ففتاة خياليّة تريد شابّاً مثاليّاً يشبه أبطال القصص في رجولته ونبل أخلاقه ، ولا يهمّها كونه غنيّاً أو فقيراً .

وحدث مرّة أن خطب « أسماء » شابٌ غنيّ قليل العلم يدعى « رامز » . لم تُعجب به « أسماء » ، ولكنّه أعجب الأمّ بحُسن طبعه ، وبشاشة وجهه ، ودَمائة خلقه ، فقرّرت أن تتّخذه صهرًا . وبعد أخذٍ وردٍّ ومشاحنات قامت بينها وبين بنتها ، تغلّبت إرادة الأمّ ، ورضيت « أسماء » أن تتزوّج بالغنيّ تزولاً عند رغبة أمّها . ولكنّ حدث ما لم يكن بالحسبان : فقد جاء القرية رجلٌ من أقارب

اتّفاق تامّ مع عروسه ، وسيعقد لهما قريبا .

*

تتابعت هذه الصور في رأس « وداد » وهي مقبلة على تطريز ثوبها . وللمرّة الثانية تخيّلت يوم الزّفاف ، وتراءت لها « أسماء » وبجانبتها « وفيق » في بدلة العرس . فقالت في نفسها : « إنّهُ جميل الصورة ولطيف للغاية . حين أزور أسماء ينصرف بكلّيّته إلى محادثتي ، كأنّني أنا المقصودة في زيارته . لقد أحسنت « وداد » الاختيار ، وإني أرجو لهما توفيقاً » .

قالت هذا متنهّدة ؛ ولكنّ وصول والدتها قطع مجرى تفكيرها ، فرفعت رأسها ، وتوقّفت هنيئة عن الشغل تريد بعض الراحة . لكنّ الوالدة اتّجهت نحوها محاولة الإسراع في مشيتها ، فيميل جسمها الضخم ذات اليمين وذات الشمال . وجلست لاهثة ، وأخذت في الحديث من غير أن تنتظر من بنتها سؤالاً :

الخطيب ودّله على فتاة في قرية مجاورة ، تفوق « أسماء » ثروةً ، فما كان من « رامز » إلّا أن ذهب مسرعاً إلى القرية المجاورة . وبعد أن اقتنع بصحّة قول نسيبه عقد قرانه على الفتاة الجديدة بين ليلة وضحاها ، غير عابى بما أثاره في والدته « أسماء » من غيظ واستنكار ، وفي ابنتها من نفور واشمئزاز .

بعد هذا الحادث قرّرت أمّ « أسماء » أن لا تتدخّل في زواج ابنتها ، وأن تدعها تنتقي من تريد . ولنفور « أسماء » من خطيبها الأوّل قرّرت أن تتزوّج فتى فقير الحال عركه الدهر ، تستطيع الركون إلى وفائه ، وتضع ثقّتها فيه . فوقع اختيارها على فتى يدعى « وفيق المؤدّب » ، أفلس والده في التجارة ، فلم يُتَح للصبي إتمام دروسه في الجامعة ، فحرّضته « أسماء » على متابعة الدرس ، وأعطته من المال ما أمكنه من تسديد نفقاته . وحين حصل على شهادة الحقوق أخذ يتسلّم الدعاوى الهامة . وهو على

- لقد انتهت استعدادات العرس . دخلت عليهما
فإذا هما تتناقشان في موضوع الجهاز . الأم تريد
عرضه على الزائرات ، و « أسماء » تأبى ذلك . ثم
إنّ الفتاة تريد تقصير المنديل الأبيض لينتهي عند
العنق ، وتُلحّ الأم على أن يكون طويلاً ينسحب
وراء العروس ، ويمسك بأطرافه ولدان صغيران .
وفيما هما كذلك وصل « وفيق » متحمساً في يده
رسالة ، فأخبرهما أنّ عمّه المقيم في بلاد « السودان »
منذ عشرين سنة ، والذي لا يعرف عنه شيئاً ، أرسل
برقية يسأله فيها الحضور إليه بسرعة لأنّه مريض
في حالة خطيرة . ثم أضاف قائلاً إنّهُ قرّر تلبية
طلب عمّه لأنّ العرس يمكن تأجيله ، أمّا الموت
فلا ...

هنا توقفت أمّ « وداد » عن الكلام لتتنفّس
الصعداء ، ثم أردفت بقولها :

- تصوّري أن لا بدّ من تأجيل العرس إلى وقت
غير معلوم . ذلك صعب جداً .

- صعب بلا شكّ ، قالت « وداد » ، كلّ شيء
أصبح جاهزاً ... وأنا أجتهد في تطريز الفستان ...
أرجو أن يُسرّع « وفيق » في العودة ...
- إنّهُ مسافر اليوم من غير إبطاء !

قالت الأمّ هذا ، وهرولت إلى المطبخ إذ شعرت
أنّها تأخّرت عن إعداد طعام الظّهْر .

علّقت « وداد » فستانها في ناحية من الخزانة ،
وللمرّة الثانية أخذت تفكّر في أعمال الصدف
وتقلّب الأحوال . تفكّر في « أسماء » هل يطول
انتظارها ، وما يكون شعورها إزاء هذا الحادث
المفاجيء الغريب ...



وفعلًا طال انتظار « أسماء » وصديقتها ، حتى
ورد من « وفيق » كتابٌ يُخبر بوفاة عمّه ، وأنّه
تسلّم أشغاله هناك وقرّر البقاء لمُدّة غير معلومة ؛
وهو لهذا ينوي فسخ خطبته ، ويترك « لأسماء »

حرية الزواج بغيره ، ويرسل إليها حوالة بالمبلغ الذي أنفقته عليه ، مبيّناً لها شديد أسفه ، راجياً منها قبول عذره .

عجبت «وداد» لتطوّر الحالة على هذه الصورة ، وزادت عجباً حين وردها بعد مدة قصيرة كتاباً من «وفيق» يسألها فيه أن ترضى بالزواج به لأنّه ما أحبّ سواها . وقد كان يريد الزواج «بأسماء» لحاجته إلى ثروتها . أمّا الآن ، وقد أصاب ثروة وافرة بما ورثه من عمّه ، فلم يبقَ هناك ما يُرغمه على زواج لا يميل إليه . وسيعود قريباً إلى مسقط رأسه ليقترن «ببوداد» إذا نال موافقتها ...

لم يتعجّب أحد من الناس حين عاد «وفيق» المؤدّب» من «السودان» ليعقد قرانه على صديقة خطيبته . ولم يستغربوا موافقة «وداد» على هذا الزواج ، بل رأوا أنّها ، لو رفضت ، لظهرت بمظهر الغيبة ، لأنّ رفضها لن يعيده إلى «أسماء» . وجلس بعضهم في إحدى العشيّات يتحدثون عن

الموضوع ، فقال أحد الجالسين :

- لقد أحسن «وفيق» صنعا . لو كنت مكانه لما تردّدت في التغيير ، فهذه أفضل من تلك بكثير .

وقالت إحدى السامعات :

- لقد ساعفه القدر ويسّره الله بعد عُسر .
مالٌ كثير ، وزوجة جميلة .
فأجابتها أخرى بجانبها :

- للمرّة الثانية تتولّى الأقدار كشف النيات ، وتُظهر خفايا الصدور ، وتخلّص «أسماء» من زوج خائن . لو تزوّجت «أسماء» هذا الفتى ، أتظنّين أنّها تعيش معه سعيدة ؟ أيّمكنها أن تعيش طوال عمرها سعيدة مع ممثّل ؟

فقالت الأخرى :

- من يدري ؟ إذا كان يتقن التمثيل ! فهو يستطيع خداعها حتى النهاية ! ما أكثر الناس الذين يعيشون بالأوهام ويسعدون بالأحلام ! فإذا رُفعت عن



قال لي الذي روى القصة :

- لا أدري ما الذي حلَّ « بأسماء » بعد هذا ...
علمت أنها سافرت إلى بلاد بعيدة تاركة أمها وحيدة
يائسة . ولا أدري هل عثرت على زوج موافق ، أم
إنها لا تزال في غمرة الانتظار ...

حلم « أم أمين »

ما زالت « أم أمين » في شغلٍ شاغلٍ منذ أن
حلّمت ذلك الحلم الذي أثار مشاعرها : رأت في
نومها شخصاً طويلاً القامة ، يلبس النظارات
والبرنيطة الفرنجية ، يطرق باب البيت ويدخل ،
ثم يناولها صرةً تحتوي كمية من الليرات الذهبية .
ولسوء الحظ استفاقت وهي في عملية عدّ الليرات ،
فلم تعرف الكمية على وجه الضبط . ورغم هذا
غمرتها نشوة الفرح ، وانبعثت في صدرها الآمالُ
العِراض . ومن ذلك الحين أصبحت حواسها أرهف
من ذي قبل .

إذا طُرق الباب خيّل لها أن شخصاً مُبرنطاً

يقف هناك وييده صرّة من الليرات ، فتُسارع إلى ترتيب المقاعد ، وتحضير علبة السيكرات . ثم تفتح الباب لترى خيبة أملها إذ يكون الطارق شحاذاً ، أو أحد الأقارب ، أو زائراً آخر ثقيلاً .

لكنّ الحلم لا يتمّ بين ليلة وضحاها . فلا بدّ لها من الانتظار ، ولا بدّ لها من الإيمان ، لأنّ كثيراً من أحلامها تتحقّق فيما مضى . حين ماتت بنتها الصغرى حملت قبل ذلك بأيّام أنّ في البيت حفلاً كبيراً ، وضمةً من الزهور في وسط الردهة ، فثارت مخاوفها لأنّ البنت كانت مريضة ، وما لبثت أن ماتت ، وتحقّق الحلم . وحين رأت في نومها ، منذ زمن بعيد ، موزّع البريد يسلمها مكتوباً ، لم يمض وقت حتى جاء المكتوب من أخيها المغترب في « أميركا » ، بعد أن انتظره أبوها وأمّها انتظاراً جرّهما إلى اليأس ... لا ريب أنّها مثل المرحومة أمّها التي ما حملت حلماً إلّا رآته يتمّ .

منذ مدّة يسيرة عاد إلى القرية أحد المغتربين في « أميركا » ، وكان كهلاً طويلاً القامة يلبس البرنيطة .

وكان بطبيعة الحال مُثرياً يملك مئات الألوف من الليرات المودّعة في البنك . فأملت أن يكون هو الصهر المنشود الذي تُزوّجه بنتها « جميلة » مقابل حفنة من المال يرميها في حضنها ، أو ، على الأقلّ ، يرضى بأخذ البنت من غير أن يكلّف أهلها نفقة الجهاز وما يتبعها من نفقات .

وفعلًا جاء العريس ، واستقبلته الأمُّ بحفاوة كادت تخرجها عن طورها . ثم انصرف من غير أن يقول شيئاً . وفهمت الأمّ فيما بعد أنّ « جميلة » لم تعجبه لأنّها سمراء . وقد اشتدّ غضبها وعلا صياحها حين قالت لزوجها :

- كلّ الحقّ عليها ! قلت لها أن تحسّن طلاء وجهها قبل قدوم الرجل ففعلت العكس ... كعادتها كلّما أوصيناها بشيء ... كلّ الحقّ عليها ! وأردفت تقول لنفسها : « لولا عنادها لتحقّق حلمي » .

وظلّت مكابرة في موضوع زواج ابنتها ،

فأقسمت لا تزوجنّها إلاّ برجل عظيم الثروة يليق بها . وهي في موقفها على حقّ ... ها هي « زينة » بنت « يوسف بهنام » تُرَفُّ إلى غنيّ صاحب أموال وأرزاق ، مع أنّ ظفر بنتها يساوي بنت « يوسف بهنام » ! ومع أنّ كثيرين من شبّان القرية طلبوا الزواج بالفتاة بعد هذا الحادث ، فقد عادوا مخيّبين ، لأنّ الأمّ ما فتئت تنتظر شخصاً آخر .

وفي خلال ذلك تحوّلت آمالها إلى ابنها « أمين » الموظّف في إحدى الشركات الأجنبية ... صحيح أنّه يعمل براتب بسيط كسائر الموظّفين الصغار ، لكنّها تنتظر له مستقبلاً باهراً ، لأنّه يعرف اللغات ، ويشغل عند أناس يقدرونه ، ولن يمضي عليه زمن حتى يرتقي ويصبح مديراً أو مفتشاً ... ألم يصبح « نديم سلوم » وأخوه من كبار الأغنياء عقيب التحاقهما بإحدى المؤسسات الأجنبية ! ؟ ألم بين « سالم مسعود » أكبر بيت في القرية بفضل استخدامه عند أولئك الذوات الذين يلبسون البرانيط

والنظّارات ، ويفتحون المعاهد والشركات ، وينثرون المال ذات اليمين وذات الشمال ؟ !

منذ أسبوع أرسل ابنها يقول إنّ اثنين من زملائه سيزوران القرية لبعض الأشغال ، وربّما زارا الوالدين في دارهما . وحين ورد هذا الخبر عمّر صدر الأمّ بالأمنيّ ، وأخذت تحسّب لهذه الزيارة ألف حساب . وراحت تهيّئ الردهة والمقاعد وهي تخاطب زوجها :

- إسمع يا « محفوظ » . هل هيّأت علب السيكرات والنقولات ؟ لا تنسَ أن تقدّم كلّ ما يلزم بينما أكون منهمكة في تحضير القهوة والليموناضة وغيرها من مشروبات .

ثمّ تخاطب نفسها : « ربّما وجدنا في أحدهما عريساً مناسباً للبنت . ومهما كان الأمر ، لا بدّ أن يكون وراء زيارتهما فائدة » .

وصل الضيفان الموعودان . وصوّبت « أمّ أمين » نحوهما سهام عينيها ، فكانت خيبتها الأولى أنّ أحدهما كان مكشوف الرأس ، والآخر يلبس الطربوش !

لكنّ الخيبة لم تنقص من فضولها شيئاً . وحين
استراح الرجلان ، وتناول كل منهما سيكارة ،
اقتربت منهما « أمّ أمين » وأمّطرتهما وابلاً من
الأسئلة حول ابنها وأشغاله والغرض من زيارتهما .
فكانا يجيبان باختصار شديد :

- « أمين » صحته حسنة ، يهديكما سلامه . وقد
قدمنا البلدة لنرى إمكانات القيام بمشروع زراعيّ ،
ولن تقتصر زيارتنا عليها .

وزادا شروحا لم تفهم منها « أمّ أمين » شيئاً .
وسرّ « أبو أمين » لأنّ الزيارة كانت قصيرة . وما
أدار الرجلان ظهريهما حتى أطلق لسانه بالشتائم لما
كلّفه هذان الغريبان من نفقة واهتمام لغير فائدةٍ ما .

*

مرّت « أمّ أمين » بعد هذا بفترة انتظار
مزعجة . فلم يأت بيتها خاطبٌ جديد ، لا غني ولا
فقير . وفي أحد الأيام ، إذ كانت جالسة تخطط ،

وقفت بجانب البيت سيّارة نزل منها ابنها « أمين »
ومعه حقائبه .

وما إن فهمت أنّه تخلّى عن شغله في الشركة
حتى ثار ثائرها ، ورفعت ذراعها تستمطر عليه لعنات
السما . واقتدى بها الأب ، فوقف كلاهما وقفة
أنبياء العهد القديم يناديان بالويل والثبور ، ويقذفان
الشابّ بصواعق غضبهما .

- ماذا جئتَ تصنع هنا ؟ هل عندنا كوارات
العسل ؟ لقد هدمت مستقبلك بيدك ! كيف تترك
الوظيفة التي قتلت حالك للوصول إليها ؟ أيّ شيطان
وسوس في رأسك ؟

وفيا كانت الأمّ تفرك يديها وتتمتم : « يا ضياع
أملنا ! » كان الابن مطرقاً يحاول كظم غيظه . وحين
أفرغ الوالدان كلّ ما في جعبتهما من عبارات تهديد
وتعنيف ، أخذ يشرح لهما أنّه ترك شغله بالاتّفاق
مع بعض زملائه ، ومنهم الاثنان اللذان زارا القرية
منذ أسابيع ، وأكد لهما أنّهم هجروا الشركة هرباً

من سوء المعاملة ، واحتجاجاً على خطّة العسّف والاستبداد التي تنهّجها . ثم قال إنّهُ اعتزم مع رفقاء له إنشاء مشروع زراعيّ تعاوُنِي يضمّ منتجي الفواكه والخضار في عدد من القرى المتجاورة ، ويأملون أن يدرّ عليهم المشروع أرباحاً وافرة في ظرف وجيز .

وحين علم الوالدان أنّ في الأمر مغامرة قد تجرّ الربح أو الخسارة تعالى صياحهما ، ولم يفهما كيف يُقدم ابنهما على ترك شغله المأمون المضمون في سبيل مشروع لا يزال في الهواء . وقال الفتى :

- ليس في الأمر مغامرة . كلّ منا يشتري بضعة أسهم يزيدها فيما بعد من الربح .

- وإن خسر كلّ رأسماله ماذا يصنع ؟

ورفعت الأمُّ يديها مرّة ثانية وهي تصرخ :

- إذهب إلى مديرِكَ واعتذر إليه ! إن لم ترجع إلى شغلك حرّمنا عليك دخول هذا البيت !



- طيّب . لن تروا وجهي بعد اليوم .

وصاح الوالدان بصوت واحد وهما يتميَّزان من الغيظ :

- إن لم تعد إلى عملك في الشركة لا نريد أن نراك . إذهب من هنا أيها الغيبي ! نحسب أنك ما خلقت ، ولا رأتك عيوننا !

★

وعقد « أمين » مع رفقاءه شركة تعاونية للمحاصيل الزراعية جعلوا مركزها في بلدة بعيدة عن بلدته . وكانت « أمّ أمين » تسمع بأخبار هذه الشركة . وقيل لها بعد مدة إنّ ابنها أصبح من كبار أصحابها ، وتوصّل إلى جمع ثروة حسنة واقتناء سيارة خصوصية .

ومرّ بها مرّة أحد رفقاءه فأراها صورته مع بعض زملائه وهو لابس برنيطة فلّين ، يشهد تصنيف الثمار وإعدادها للتصدير .

فصفقت الأمّ طرباً وقالت :

- ها هو حلمي يتحقّق ! ليس الذي رأيته في المنام

سوى ابني « أمين » وقد عاد إلى البيت ومعه جراب ذهب رماه في حضني .

وأرسلت إليه كتاباً تستقدمه . وأخذت تصلّي بحرارة ، وتنتي نفسها برجوع الصبيّ إلى البيت في سيارة خصوصية قد حملت أكياساً من الذهب والفضّة .

لكنّ « أمين » لم يعد أبداً .

ألقوا دلوكم !

كان الخطيب فتىً في مقتبل العمر ، لم يتخطَّ ربيعَه السابعَ عشرَ ، ربَّعةً ، وسيمَ الطَّلعة ، وجهُه كوجه فتاة . لكنَّه ، حين واجه الجمهور ، وقف شامخَ الرأس ، مرتفع الصدر ، وملاً القاعة بصوته الجهوريّ ، فملك قلوب السامعين . ومع أن أكثرهم لم يفهموا مغزى كلامه ، فقد ظلَّت عيونهم مسمَّرة عليه منذ بداية الخطاب حتى نهايته . وبحركة آليَّة ارتفعت أيديهم بتصفيق حادٍّ طويل ارتجَّت له الجدران . وهمَّ بعضهم بحمله على الأكفِّ ، في حين كانت النساء يتمتمن بأصوات خافتة : « الله يخلِّيه لأبويه ! ما شاء الله ! سيكون نابغة زمانه ! »

هذا الفتى الذي انتزع إعجاب الجمهور كان رابع المتبارين في الحفلة الخطابية التي أقامتها « مدرسة النور » في إحدى أمسيات الربيع ، كعادتها في كل سنة . وحين أُعلنت نتيجة المباراة كان الفائز بالجائزة الأولى . وتناقلت شفاه الحضور اسمه لأنهم تاقوا إلى معرفته : « راغب سعيد طالب في الصف المنتهي ، أبوه عامل بسيط لا يستطيع الإنفاق عليه . يتلقى العلم مجّاناً لأنه متفوّق في دروسه » . أمّا خطابه فتركز على جملة تردّدت في تضاعيفه ، وهي الجملة التي تلقّاها جماعة من المسافرين نفد منهم الماء ، وبرّح بهم العطش ، وهم تائهون في عرض نهر كبير ظنّوه بجرّاً ، فأرسلوا نداء إلى أقرب ميناء يطلبون ممّن هناك إمدادهم بالماء ، فجاءهم الجواب :
- ألقوا دلوكم حيث أنتم ، لأنّ المياه التي تمخرها سفينتكم صالحة للشرب !

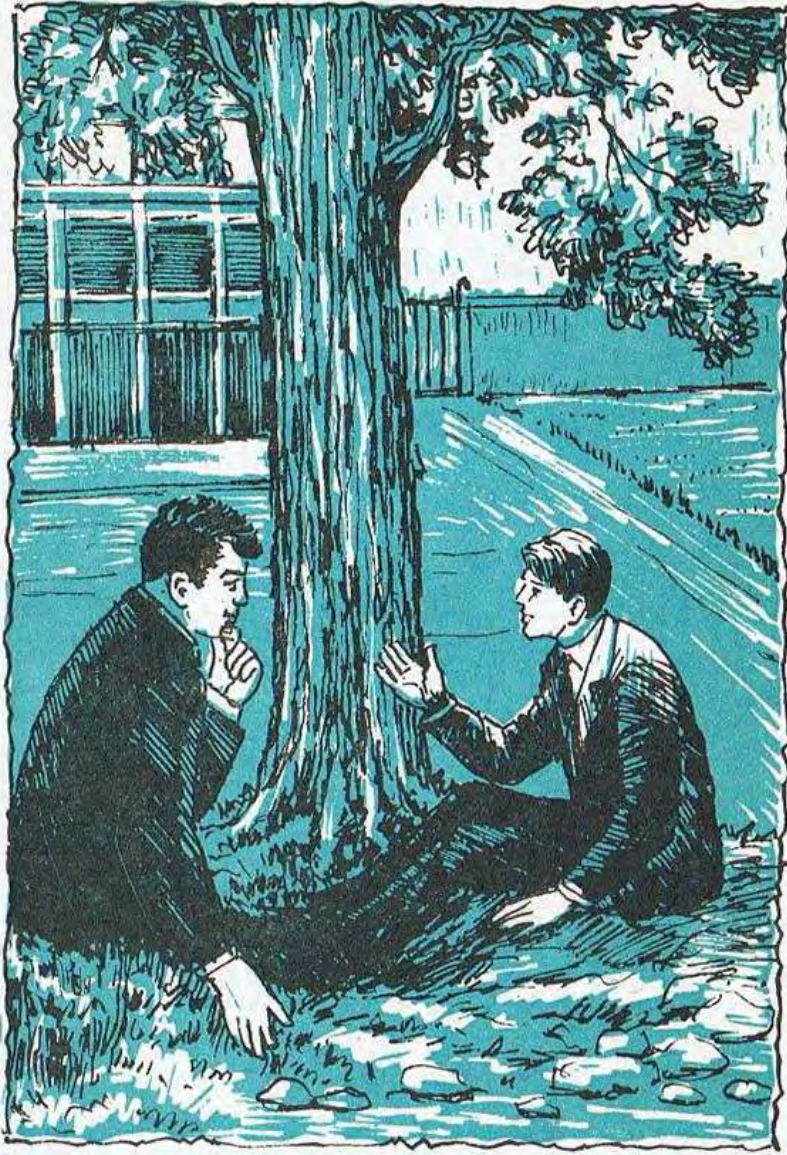
إنتهت الحفلة ، وتفرّق الجمهور بعد أن أنفقوا شطراً من يومهم في لهوٍ لمع كالبرق في سماء حياتهم

الرتيبة . أغدقوا على الأساتذة وعلى الخطباء عبارات الثناء التقليدية ، وذهب كل منهم في سبيله . أمّا الطلاب فخرجوا من قاعة الحفلات وانتشروا فوق الهضبة التي قامت عليها المدرسة ، كأنهم قطيعٌ شارد ، وراحوا يطلبون في القفز والجري مصرفاً لنشاطٍ محبوس . لكنّ واحداً من زملاء « راغب سعيد » انتحى إحدى زوايا الساحة الكبرى ، وجلس في ظلّ واحدة من تلك الشجرات الجبّارة التي وقفت كل منهنّ في مكانها كالخارس الأمين ، تمنح الطلاب بسخاءٍ ما منحها الله من نضارة وظلّ .

كان هذا الفتى من أعضاء الصفّ المنتهي ، وقد جمعت بينه وبين « راغب » أواصرُ الزمالة والصدقة . ورغم أنّه كان غريب البلد ، قصّد هذه المدرسة منذ بضع سنوات ليطلب العلم ، فقد استطاع أن يندمج برفقائه حتى صار كواحد منهم .

لقد ترك خطاب « راغب » أثراً عميقاً في نفسه ؛ وظلّت عبارته « ألقوا دلوكم حيث أنتم » تتردّد في

سمعه كأنها قرارُ أغنية محبّة . فما سنحت له فرصة
الاجتماع بصاحب الخطاب حتى حدّثه عن
انطباعاته بجرارة لم يُعرها « راغب سعيد » أيّ
اكتراث . لكنّ الزميل - واسمه « جميل سالم » -
فوجيء بموقف صديقه ، وعجيب من قدرته على
معالجة موضوع لا يؤمن به . إنّه معجب
بذكاء « راغب » ، حريص على استكشاف رأيه في
كلّ مسألة ، صغيرة كانت أم كبيرة . لذلك قرّر رأيه
على أن يعود إلى مطارحته الموضوع في فرصة أخرى
ليدافع عن وجهة نظره . ولم يطُل به الوقت حتى
اجتمع « براغب » في مأدبة عشاء أقامت إدارة المدرسة
للطلاب الفائزين بشهاداتهم . لازم « جميل » صديقه في
تلك السهرة التاريخية ، وجلس وإياه في الحديقة
التي تدلّت من أشجارها مصاييحُ يابانية ملوّنة ترسل
أنواراً خافتة كأفوار الحلم . فاستأنف كلاهما مناقشة
موضوع الخطاب ؛ وبعد أخذ وردّ طرح « جميل »
على رفيقه سؤالاً يتملّل في رأس كلّ فتى يواجهه من



حياته مرحلة التخطيط للمستقبل :

- ماذا أنت فاعلٌ في السنة المقبلة ؟

أرعى « راغب » عينيّه ، ونظر إلى الأرض
كعادته حين يغرق في التأمل . ثم أجاب بعد تردد :
- والله لم أقرر بعد . لكن ... أعتقد أنّي سأسافر .

- تسافر ؟ إلى أين ؟

- إلى « البرازيل » حيث يقيم لي خالٌ وأبناء

عمّ ...

- ولكن ... لماذا لا تعمل هنا ؟

قلب « راغب » شفتيه ثم أجاب :

- عرضت عليّ وظيفة معلّم في هذه المدرسة
فرفضتها .

- لماذا ؟

- أجنونٌ أنا لأرضى بهذه الوظيفة التي ترهق

صاحبها ولا تطعمه خبزاً ؟ إنّ أحلامي بعيدة ...
بعيدة جداً . أحسّ أنّي أريد قطف النجوم
بيدي .

- لكن لا يمكنك الوصول دفعة واحدة إلى ما
تريد . تبدأ بعمل متواضع ، ثم ...

فقاطعه « راغب » قائلاً :

- لا فائدة من الجدال . لن أضيع وقتي في عمل
حقير لا يفيدني مادياً ولا معنوياً .

لكنّ « جميل » لم يقنط من إقناع صديقه ، فقام
بمحاولة أخيرة :

- إنّ هجرة أمثالك من الشبان المثقّفين خسارة
كبيرة للبلاد . في الهجرة مخاطرة ، مصاعبٌ
ومشقّات ، سعيٌ وراء المجهول .

- أعرف . لكنّ بلادنا بلادٌ فقر وخمول . لقد
سئمتُ هذه الأرض وأهلها . رأييت واحداً منهم
يصيب نجاحاً عن غير طريق الهجرة والمغامرة ؟

وافترق الصديقان . عاد « راغب » إلى بيته ليرتاح
من عناء النهار ، وظلّ « جميل » جالساً على مقعده
في الحديقة . يعزّ عليه أن يفارق هذه الربوع التي

أحبّها ، والتي صارت قسماً من حياته . سرّح نظره في الأشجار المحيطة ، حوّله إلى التّلال القريبة ، إلى السفوح التي قامت عليها منازلُ حجريّةٌ مقبّبة السطوح ، متينة البناء ، دافئة الجو . عجباً ! كيف يستطيع « راغب » أن يسأم هذه الأرض التي كانت وما تزال مقصد الغرباء ؟! لماذا يغامر في أرض غريبة وأرضه ما تزال بكرّاً تحتاج إلى مغامرين ؟ .. إنّ فيه شيئاً من طبيعة الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون !..

طال تفكير « جميل » وهو جالس على مقعده في الحديقة . ولم يشأ أن ينام من غير أن ينتهي إلى نتيجةٍ ما . أخيراً ومضت له فكرة : سيذهب غداً إلى مدير المدرسة ويقول له إنّهُ مستعدٌّ لتسلّم الوظيفة التي رفضها « راغب » . لقد حصل في الامتحانات على درجة حسنة ، ولا شك أنّ المدير سيرحب به لأنّه واحد من الأربعة الأوّلين في صفّه ، وإن لم يكن الأوّل مثل « راغب » . وحينئذٍ ستتاح

له فرصة البقاء في « لبنان » . وإذا لم يجد خيراً في عمله التعليمي فقد يوفّق إلى غيره . إنّ نشاطه لا حدّ له ، والغدُ يئنّيه بالوعود .



في صباح يوم صائف كانت السفينة « اسيريا » تُلقّي مراسيها في مرفأ « بيروت » . وخرج منها الركّاب عابرين السّلم الذي يصلها بالأرض . وكلّما خرج واحد هُرع لاستقباله حفلاً من الأهل والأصدقاء ؛ إلّا واحداً في منتصف العمر ، يلبس قبّعة من القشّ ، ويحمل بيديه حقيبتين كبيرتين وصغرى . عبر السّلم خافض الرأس ، إذ لم يجد أحداً في انتظاره . وللحال ركب سيّارة أجرة ضمت ثلاثة آخرين من الركّاب ، وجلس صامتاً في ركن منها . وغرقت عيناه في المناظر التي انكشفت له من نافذة السيّارة متعاقبةً كشريط سينائيّ . عجباً ! كلّ شيء قد تغيّر منذ سفرته التي استغرقت نحو عشرين سنة ! في هذه المدّة القصيرة تزدحم

« بيروت » بالبنائيات ذات الجدران الملساء ، والشرفات المتعددة ، والشقق المتراكمة بعضها فوق بعض ... يظهر أن البناء ما زال يجري على قدم وساق : ففي كل شارع وكل منعطف أساس يوضع ، وجدران ترتفع ، وهدير آلات النقر والحفر يصم الأذان ... بأي سحر استطاع هؤلاء الناس أن يجمعوا المال اللازم لتشييد هذه الأبنية الجبّارة في هذا الظرف الوجيز ؟ لعلّه أخطأ في العودة ، فهذه البلاد لا يعيش فيها سوى كبار الأثرياء . لقد بلغته في الغربية أخبار الإثراء السريع فأغرته بالرجوع ، ولكن ... ما زال هدير المحركات في أذنيه ، يهز كيانه فيشعر بضيق وانزعاج . أخيراً تقف السيارة في منعطف ، فيترجل منها الركاب الثلاثة ؛ أمّا هو فيشير إلى السائق بأن يوصله إلى قريته التي تبعد نحو نصف ساعة عن المدينة .

وراحت السيارة تخرق الضواحي المنفرجة الهادئة . ويهب من ناحية الجبال نسيمٌ بليل يلامس

وجهه وشعره ، فيحس بانفراج .

ها هي ذي قريته القديمة ، ذات البيوت المتفرقة الدانية السطوح ؛ أخذت تشرّب من بينها المساكن الحديثة ذات الشقق المتعددة ، تتألق في الضحى ألوان نوافذها وشرفاتها كأنها ، بهذه الزخارف ، ستجد عوضاً عن الجنائن الخضراء التي أحاطت بالمنازل القديمة . ولكن هيهات ! الجنائن يتناقص عددها ! لقد ابتلعها البستان الجديد الممتد في جانب من القرية . لا حركة ، لا صوت ، سوى خرير الماء ينصب في بركة قديمة .

أين يقف ؟ لم يبق له بيت ينزل فيه . أبوه مات منذ خمس سنوات ، وكانت أمّه قد سبقته إلى القبر قبل ذلك بقليل . أختاه في الغربية ، كلٌ منهما تزوّجت ببن عم لها وتقيم معه في إحدى مدن « البرازيل » . أخوه الأصغر موظف في إحدى شركات « بيروت » ، متزوّج بفتاة موظفة مثله ، مقيم في حي يقطنه صغار العمّال والموظفين ، وقد انقطع

عن مراسلته في المدة الأخيرة فلا يدري ما آلت إليه
أحواله .

أين يقف ؟ وما عساه يصنع في هذه القرية التي
انساق إليها من غير تفكير ، يحذوه دافع مبهم ؟
وفجأة وجد نفسه في المكان الذي قام فيه بيت أبيه ؛
ذاك البيت المتداعي ، المؤلف من غرفتين ، قد لبس
الآن ثوباً جديداً ، وتضاعف حجمه . لا ريب أن
الذي اشتراه قد أجرى فيه بعض الإصلاحات . عرفه
من النخلة الواقفة هناك منذ أربعين سنة . ما زالت
تهزُّ سَعَفَاتِهَا كالمروحة ! كانوا يسمونها « البارومتر »
لأنها ، حين يقترب المطر ، تترنح كالسكرى ذات
اليمين وذات اليسار ، فتعلن قدومه . كم تسلق
جذعها حين كان صغيراً ، وكان الجذع لا يجاوز في
ارتفاعه أعلى النافذة . فكانت أخته « هدى » تمدُّ رأسها
من خلال القضبان ، وتتلقّف منه بيديها حفّات
البلح وهي تقول :

- يا لك من بهلوان ..!

كان بارعاً في التسلق ... وفي أشياء أخرى .

لا يدري كم مضى عليه من الوقت وهو غارق في
أحلامه ، حيناً أحسَّ بيدٍ قويّة تستقرّ على كتفه ،
وبصوت دافئ ينبعث من الماضي السحيق ويردّد
اسمه :

- « راغب » ... « راغب سعيد » ...

- « جميل » ..! « جميل سالم » ! لولا صوتك لما
عرفتك !

- لقد غيّرنا الأيام .

- إلى أفضل . أراك كما كنت ، صلب العود ،
مفتول العضل كالرياضيين . وقد أصبحت الآن
مصقول المظهر كأصحاب الأعمال وكبار التجّار .

- هيا إلى منزلي ، فأنت ضيفي ما دمت في هذه
القرية .

سار « جميل » برفيقه القديم إلى بيته الجديد
حيث عرفه بزوجته وأولاده الثلاثة . وبعد راحة

قصيرة تناول الضيف خلالها قليلاً من الطعام والشراب في غرفة الطعام ، قاده إلى الدور الأعلى من منزله ، الذي احتوى على غرف النوم الخاصة بالأسرة ، وبينها غرفة الضيوف ، فأجلسه فيها . ودار بينهما حديث طويل سأل فيه « راغب » عن أحواله ، وكيف توصل إلى ما هو عليه ، فقال :

- منذ نحو عشرين سنة اشترت قطعة أرض بثمان زهيد جداً . واستفدت من مشروع الري الذي قامت به الحكومة ، فغرسها أشجاراً مثمرة ، وحوّلتها إلى بستان . وحين اجتمع لديّ المال الكافي ، الذي حصّلت من عملي ومن غلة البستان ، بنيت هذا المنزل المؤلف من طبقتين . أمّا المال الذي أوفّره من دخلي فأوظّفه في مشاريع مختلفة .

- لقد أسعفك الحظ . إنني أهنتك . أمّا أنا فقد جمعت في بلاد الغربية ثروة لا بأس بها . وفي فرصة أخرى سأحدثك عن مشاريعي .

- نعم . في فرصة أخرى . أنت الآن في حاجة

إلى الراحة ، فإلى غد .

في عشية اليوم التالي جلس « راغب » في شرفة الغرفة التي أنزله فيها صديقه ، ومدّ بصره إلى السهل المنبسط أمامه والجبال المرتفعة وراءه ، فراحه ما رآه ! وخيّل له أنه يرى بلاده لأول مرة : هذه القرية التي هجرها قبلاً وفي صدره نفورٌ واحتقار ، لماذا تغيّرت الآن في نظره ؟ أهى التي تغيّرت ؟ أم هو ؟ أم الزمن ؟

- أنت ما تزال كعادتك كثير الأحلام .

رنّ في أذنه صوت « جميل » فانتفض . وأضاف « جميل » :

- هذه علامة طيبة ، تدلّ على أنك ما تزال في سنّ الشباب ، فالشباب زمن الأحلام .

- لكنّ الأحلام لا تتحوّل دائماً إلى حقيقة .

- لماذا ؟ ما الجديد الذي يحول في رأسك ؟

- عدت من « أميركا » وفي رأسي مشروع كنت

أنوي إخراجه هناك إلى حَيِّز الوجود . لكنّه في تلك البلاد تجارة معروفة مبتذلة ، أمّا هنا فاعتقد أنّه جديد .

— ما هو المشروع ؟ سأله « جميل » بلهجة فضول ، وقد اتّسعت حدّقاته بشكل غريب .

— أودّ أن أشتري قطعة أرض كبيرة : أرض بور ، صخرية ، غير صالحة للزراعة ، من صنف الأرض التي تباع هنا بسعر زهيد لا يجاوز بضعة قروش للمتر الواحد ؛ فأبني عليها مساكن أوّجرها ، أو أبيعها بالتقسيط بضِعْفَي أثمانها . هذه القرية قريبة من « بيروت » ، وكثيرون من سكّان المدينة يفضلون هدوءها على ضجيج مدينتهم ... ما رأيك ؟

— والله فكرة حسنة . لكنّ أرض البناء ترتفع أثمانها باستمرار . وأخشى أن لا تجد مطلوبك الآن .

— ماذا تعني ؟

— أعني أنّك لو اشتريت الأرض البور منذ عشر

سنوات أو أكثر ، حين كانت لا تساوي شيئاً ، لكان الأمر . أمّا الآن فأسعار الأرض المعدّة للبناء أصبحت فاحشة .

— لو كنتُ نبيّاً لفعلت .

— أمّا أنا فلست نبيّاً ، ومع هذا أُلهمتُ مشتري قطعة أرض من هذا النوع تتّسع لعشرات الأبنية ، من شخص كان يدين لي منذ أكثر من عشر سنوات بمبلغ من المال عجز عن تسديده ، فباعني الأرض بثمان زهيد جداً ليتخلّص من الدّين . إنّني مستعدّ لتقديم الأرض ومشاركتيك في رأس المال . وبما أنّك ذو خبرة في الموضوع ، يمكنك إدارة العمل وتأمين الأرباح التي سنقتسمها كلّ حسب رأسماله . ما رأيك ؟

— رأيي أنّك عظيم ! حظّك يفلق الصخر !

— سمّه حظّاً إذا شئت ، أو إلهاماً ، أو بُعدَ نظر ، أو بصيرة . لا فرق . ألا تذكر خطابك :

« ألقوا دلوكم حيث أنتم » ؟

تنهّد « راغب » وقال :

- بلى ! أتذكره الآن ، وقد نسيته طوال
السنين الماضية . ولكن يا عزيزي ، أنى لي أن أعلم
بأنّ ما يصحّ في ظرف من الظروف قد يصحّ في
غيره ؟ ...

*

مضى على هذا الحوار بضعة شهور وضع
الشريكان خلالها الترتيبات اللازمة لإتمام مشروعها .
وأخذت الأبنية ترتفع واحداً تلو آخر كأنما الجنّ
أسهموا في بنائها . كان « راغب » يسمع هدير
المحرّكات التي تدير آلات الحفر ، فيطرب له ويزول
انتقباؤه .

ودرّ المشروع على صاحبيه مالا وفيراً نال منه
« جميل سالم » حصّة الأسد ، فصار من أصحاب
الملايين . أمّا « راغب سعيد » فكان سعيداً بالحصول
على نصيب من المال أمكنه من اقتناء مسكن جديد

يأوي إليه ، بعد أن عاش مشرّداً في مجاهل
« البرازيل » مدّة عشرين سنة لم يذق فيها طعم
الاستقرار ولا دفء الأسرة . لكنّه يُصرّ على القول
إنّ الحظّ خدم رفيقه القديم ، أمّا هو فلم يصبه منه
إلاّ رشاشٌ في المدّة الأخيرة . ثم يضيف : « ومن
حسن الحظّ أيضاً أنّ الدنيا لا تخلو من أصدقاء » .

النَّارُ الْخَفِيَّةُ

منذ أن اختطف الموتُ صديقتي « ليلي » ، التي
كنّا نسمّيها « المادونا » لانفراج جبهتها وطول
عنقها ، استولى عليّ حزنٌ عميق فتح في قلبي جرحاً
لا يندمل . لا أنكر أن الموت يخطيف الكبار
والصغار ، وأنا جميعنا معرضون في أيّة لحظة
لضربات العمياء ؛ لكنّ « ليلي » فتاة نادرة ، لا يجود
الزمان بمثلها إلّا كما تجود الصحراء بالينابيع الغزيرة .
فاختفاؤها المفاجيء في ربيعها السابع عشرَ خسارة
لا تُعوّض .

كانت أوّلَ علاقتي بها في المدرسة ، حين دخلنا
معاً جوقة الترتيل . وانضمّت إلينا « نهلة » ، فكنا

ثلاث طالبات في عمر واحد ، نسترعي النظر
بتفوقنا في الغناء ، وبلازمة الواحدة منا للآخرى ،
حتى كدنا لا نفرق .

كانت « نهلة » أعذبنا صوتاً ، وكنتُ أسرع
الثلاث إلى حفظ الألحان صحيحةً ، خاليةً من أيّ
خطأ . أمّا « ليلي » فكانت تعزف النشيد حالما تحفظه ،
ولا تخطيء في عزفه ، مع أنّها لم تدرس الموسيقى .
وقد لاحظت معلّمة النشيد موهبتها هذه فشجّعته
على درس البيانو . وبما أنّ أهلها كانوا عاجزين عن
تسديد قسط الموسيقى المرتفع ، عرضت عليها المعلّمة
أن تدرّسها العزف مجاناً إذا حصلت على علامات
ممتازة في دروسها .

وهكذا بدأ عهدٌ مشرق لامع في حياة « ليلي » .
عكفت على درس البيانو بحماسة غريبة ورغبة
استقطبت سنيها الأربع عشرة . كانت ، إذا أنجزت
أعمالها المدرسية ، تجلس إلى البيانو ساعاتٍ لا تحسّ
فيها بمرور الوقت . فإذا فاتها إتقان درسها في النهار

أنفقت في العزف شطراً من ليلها ، حين يكون سائر
أهلها غارقين في النوم . وبما أنّ البيانو الذي في
المدرسة لم يكن دائماً تحت تصرفها ، فقد عمّدت إلى
استئجار واحدٍ ركّزته في غرفتها ، تعزف عليه
حين تشاء ، وقدر ما تشاء .

أخبرتني مرّة أنّها حملت في إحدى الليالي حملاً
أفاقت منه باكياً : حملتُ بأنّها تعزف على بيانو
أبكم لا يخرج منه أيُّ صوت . وظلّت تحاول
وتحاول العزف من غير فائدة ، حتى سالت الدموع
من عينيها غزيرةً ساخنة . وحين فتحت عينيها ،
ورأت مَخَدَّتها مبلّلة بالدموع ، شكرت الله لأن
محاولتها لم تكن إلاّ حملاً .

كانت أصابعها دائماً الحركة ؛ فهي لا تفتأ
تعزف ، تلحن ، تُهمهم لحناً يغزو سمعها من غير
انقطاع . وقد اتفقنا ، نحن الثلاث ، « نهلة »
و « ليلي » وأنا ، على التعاون لتكوين حركة موسيقية
في المدرسة وخارجها . قلت لها :

- أنت تعزفين ، ونحن نُنشِد ، ونؤلِّف جوقة
مع فتيات آخر . وربّما استطعنا النّظم ، أو
لقينا منظومات نكِلُ إليك أمر تلحينها .
فلقيت الفكرة تجاوباً منها ، شرط أن لا تمنعها
من إتمام دروسها .

كانت آمالنا كباراً حين هجم الموت على هذه
الزهرة العجيبة وسحقها من غير رحمة !

*

إنفرط عقد الجوقة بعد رحيل « ليلي » ، كأنما
فقدناها هدّ عزميتنا وكبّل تفكيرنا . لم يخطر ببال
أيّ منّا أن تدرس الموسيقى اقتداءً بصديقتنا الراحلة ،
وإكمالاً لعملها . هزّتنا الصدمة هزّاً لم تُشف منه إلّا
بعد أن فاتنا وقت التعويض والمتابعة . ولم تمض
سنة حتى تركت « نهلة » المدرسة بناءً على رغبة
أمّها . وشغلت أنا بواجباتي المدرسيّة ، وبمشاكل
عائليّة حتمت عليّ الشغل لتحصيل المال ،
فرُحتُ أستعدّ لاحتراف التعليم .

زرت « نهلة » بعد انقطاعها عن المدرسة بمدة .
فقالت أمّها :

- إنّها عند الخيّاطة ، وستأتي بعد دقائق
قليلة ، فانتظريها .

وحين عادت قادتني إلى غرفة نومها ، وعرضت
أمامي صفّاً من الفساتين الجديدة ، وصنوفاً من
المساحيق والمعجونات وسائر آلات التجميل التي
تدرّب على استعمالها .

جلست وإياها في غرفة الاستقبال ، وانضمت
إلينا أمّها ، فتدققت كلتاهما في حديث الأزياء
والألوان . وذكرت الأمّ تاجراً يبيع أجمل الأقمشة ،
وتاجراً آخر يبيع أفضل العطور . حدّثني عن
ذاك المزيّن البارع الذي يهتمّ بشعر « نهلة » ،
وأوصتني بتلك الخيّاطة التي ترضى بأجور معتدلة
لتصنع أفخر الملابس . ثم قالت :

- سوف تتحقّقين ، يا « منى » ، صدقَ قولي ،
حين تزورين هؤلاء الذين اخترتهم لتجميل ابنتي ؛

وإني مستعدة لأوصيهم بك خيراً ، وأقنعهم
بهاودتك في الأسعار ...

أدركت أن « نهلة » دخلت عالماً جديداً مختلفاً عن
المدرسة ، تسيطر فيه أمها وجماعة من النساء
المتعطّلات ، يُطلقن على ذواتهن اسم « الشَّلَّة » .
يعقدن مجالس الحكيم التي تستغرق معظم أوقاتهم ،
ويتفرغن فيها لإذاعة أخبار الخطبة والزواج ،
والحمل والولادة ، والموت والإرث ، والبيع
والشراء ، والأجور والخدم . يعشن جماعات
كقطعان الغنم ، يخشين الوحدة كخشيتهن من
الشغل . لا يفتحن كتاباً ، ولا يعرفن شيئاً عن
أسرار العلم وروائع الفن . لا يستوقفهن منظر
غروب ولا لوحة تصوير .

تصوّرت « نهلة » غارقة حتى الأذنين في هذه
البيئة ، منسجمة مع تقاليدها ، خاضعة لأحكامها .
وكأنما كل ما درسته في المدرسة لم يكن إلا قشرة
رقيقة يسهل انتزاعها . تقضي وقتها متعلقة بأذيال

أمها التي تنتقل بها من حلقة إلى حلقة ، منتظرة
بفارغ الصبر أن يأتي اليوم الذي تتعلّق فيه بأذيال
الزوج ، ثم بأذيال الابن ، أو أذيال أولادها جميعاً ...
كلما زرتها حدّثني عن فلان الذي ينوي
خطبتها ، وعن فلانة التي تتحرّق شوقاً لتزويجها
بابنها ، وعن ذاك الشاب الذي يُعجبها ولا يعجب
أمها ، لأنه ذو دخل محدود لا يستطيع أن يوفر
لها السعادة والرفاهية ...

قلت :

- ألا تفكرين في الاستزادة من العلم ؟ ألا
تستهويك المهنة ، وفلسفة التحرّر ؟

قالت :

- ترهّات ! ما الذي أستطيع تحصيله لو اشتغلت
خمسین سنة في المهنة ؟ أليس الأفضل أن أتزوج
رجلاً يملك أموالاً كثيرة ، ويقدم لي حاجاتي من
غير تعب أو شقاء ؟

قلت :

- لكنّ في الشغل لذة لا نجدها في الراحة والخنول .

قالت :

- ليس هذا رأيي ، ولا رأي أمي .

فأصررتُ على المناقشة بقولي :

- أmaal يأتي ويذهب . بينا العلم يدوم ...

فأجابت :

- وهل المهنة أضمن من الأموال والعقارات ؟
ألا يتعرّض صاحبها للطرد والفقر ؟

- هذه آراء أمك العتيقة التفكير . ما لكِ ولها .
لعلّها تطمع في صهر غنيّ تعتمد عليه عند الحاجة ...
أعني أنّها أنانيّة .

- أنا كذلك أطمع في الزوج الغنيّ الذي يقدّم لي بيتاً فاخراً الأثاث ، ويكسوني الحرائر والمجوهرات .

- وإذا لم يحضّر هذا المثيري الكبير ؟

- ساواصل السعي حتى الفوز . ولا بدّ للصابر من الظفّر .

وقد ثابرت « نهلة » وأمّها مثابرة الجنود في معركة مصيريّة . لم تهملوا واحداً من الأساليب المؤدّية إلى إنجاح مسعاها . لم تتركوا باباً إلاّ طرقته ، ولا سمسارّة عرائس إلاّ سعّتا إليها . وبعد جهادٍ دام أربع سنوات ، انفرجت الأزمة ، وصحّ عزم الأمّ على تزويج بنتها بعروسٍ مُسنّ ، لكنّه عظيم الثروة ، ومرشّح للحصول على إرث كبير من عمّه العازب .

*

كنت في ذلك الحين معلّمة حديثة العهد بالتعليم ، تستغرق المهنة جميع نشاطي . وقد شاهدتُ من غير اكتراثٍ فصول المسرحيّة التي قامت بتمثيلها « نهلة » وأمّها .

أعجبني القيامُ بمغامرة من نوع آخر ، قد تكون أشقّ من المغامرة التي تكلّفقتها « نهلة » وأمّها للحصول على رجل غنيّ . لكنّ في مغامرتي سحرَ

الجديد ، وولوجاً إلى عالم لم تعرفه رفيقاتي القابعاتُ
في إطار الماضي ، والمحدوداتُ بشؤون المآكل
والملبس .

مرّت السنون وأنا في كفاح متّصل لا أجد معه
فرصة للتفكير في الماضي ، ولا في ما يجري حولي .
لكنّ صورة واحدة لم تبارح ذهني ، هي صورة
« ليلي » التي اختطفها الموت وقضى على موهبتها
الفذة .

في أحد الأيام فوجئتُ « بنهلة » في مكتبي ، وقد
جاءت لتسلمني بنتها الصغيرة « هيام » ذات السنوات
الخمس ، والصوت العذب كصوت أمّها ... كان
سروري بهذه الطفلة عظيماً . وطّنتُ النفس على
تربيتها وتوجيهها ، وُخيل لي أنّ وجودها في
مدرستي يحدّد عهد صداقتي مع أمّها يوم كانت فتاة
مقبلة على العلم ، راغبة في التحصيل . وما طال الوقت
حتى ألّفتُ جوقة موسيقية كانت « هيام » إحدى
نجماتها اللامعات . واستقدمتُ معلّمة تجيد العزف ،

وكنت أشارك في الغناء ، وأروي للبنات شيئاً عن
كبار الموسيقيين وصبرهم وكفاحهم . كنت أتكلّم
بحرارة يتكهرب معها الجو ، فإذا حدّثتهنّ عن
« ليلي » قلت إنّ قلبها كان ملتهباً بنار الولع
بالموسيقى ، فلم يكن فيه موضع لحبّ آخر .

كبرت « هيام » ، ونما معها حبّها للغناء والموسيقى .
كانت تشرب الأنغام شرباً ، وتعيد الألحان بدقّة
عجيبة . ما الذي حبّب إليها أصوات الطبيعة
فجعلها تنصت بكلّ جوارحها لوقع قطرات المطر
على الزجاج ، لنُواح الريح وتساقط أوراق الشجر ،
لتجاوب الديكّة ورنين الأجراس ؟ وربّما سمعت
ألحاناً خفية لم توجد إلّا في خيالها .

ما كان أشدّ فرحها يوم نقلت على البيانو نغمة
العصفور الصغير الذي سحرها بغناؤه ! لقد لفتت
نظر معلّمتها فعزمت على إعطائها دروساً خصوصية
في العزف من غير علم أمّها . أمّا أنا فرأيت من
واجبي أن أفتح الأمّ في الموضوع ؛ ولكنّ ، ما إن

ذكرته لها حتى صرخت :

- لا ! لا ! لا أريد !

سألها متعجبة :

- لماذا ؟

- لأنني أريد بنتي ست بيت لا موسيقىة .

- لن تمنعها الموسيقى من أن تكون ست بيت .

- لا ! لا ! لا أريد لابنتي هذا الفن المضي
الذي كلّف « ليلي » حياتها وساقها إلى موت مبكر .

- ولكن ، يا عزيزتي ، لا تستسلمي للأوهام ...

فقاطعتني قائلة :

- إني أوّمن بالنّحس ، وأعرف أنّنا جميعاً
ألعوبة القدر ، فلا يجوز لنا أن نعانده . قلبي
يحدّثني بأنّ « هيام » ستموت مثل « ليلي » إذا درست
الموسيقى .

فصرخت :

- كلُّ هذا محض وهم يجب أن تتخلّصي منه !

- لا . لا . ليس وهماً .

ماذا أصنع ، وكيف أقنع هذه المرأة المتحدّرة
الفكر ؟ جرّبت آخر سهم في جعبتي ، فقلت :

- أتعهد لك بأن أعتني بها أشدّ اعتناء . إذا
أصيبت بأقلّ وعكة أو ضعف أو ملل تتوقّف عن
درس البيانو .

فكرت « نهلة » برهة ، ثم قالت :

- أتعدينني وعدّ شرف بأن لا تدعيها تتعب ؟

- نعم . وعد شرف !

ورضيت أخيراً بعد تردد .

★

وبدأ كفاحي لوقاية « هيام » من أيّ انحراف
صحّي . وأصبح سهري عليها ورعايتي لها عملاً
مُضنياً : إذا وجّعها رأسها تألّمت معها ، وسارعتُ

إلى إعطائها المسكن والعلاج السريع المفعول قبل أن
تشكو أمرها إلى أمها ؛ إذا عجزت عن إتمام درسها
في النهار منعتها من سهر الليل وتساهلت في
تقويم نشاطها .

مرت السنون من غير حادث يُذكر . وصارت
« هيام » بارعة في العزف ، كما امتازت بخلق رَضيٍّ ،
مرح ، جعلها فتنةً لكل من رآها ، وجعل الناس
يلهجون بذكرها .

قَبِيلُ تخرُّجها من معهد الموسيقى بيضعة شهور
بدت عليها علاماتُ الذبول . وما لبثت حتى لزمّت
الفراش وانقطعت عن الدرس .

أصبت حينذاك بصدمة عنيفة وخوفٍ مريع .
ها قد بلغت « هيام » سنَّ الخطر ، السنَّ التي
أماتت « ليلي » ! هل قُدِّر لمشروعي أن يُخفق ؟
لا ريبَ في ذلك ! إذا لم تُمَت « هيام » فسوف تمتنع
عن درس الموسيقى وتذهب كلُّ آمالنا هباءً !



ظَلِمْتُ أَصْلِي وَأَبْتَهْلُ ، وَفِي قَلْبِي شَعُورٌ يَأْسُ
اِسْتَطَعْتُ ، بَعْدَ جَهْدٍ ، أَنْ أَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ . حَمَلْتُ
قَلْبِي فِي يَدَيَّ ، وَأَخَذْتُ أَزُورُ « هِيَامَ » حَامِلَةً إِلَيْهَا
الْأَدْوِيَةَ الْمُقَوِّيةَ وَمَأْكُولَاتِ تَثِيرِ الشَّهِيَّةِ . خُيِّلَ لِي
بَعْدَ قَلِيلٍ أَنَّ « هِيَامَ » تَعُودُ إِلَى الصِّحَّةِ شَيْئاً فَشِئاً ،
وَأَنَّ خَدَّيْهَا يَكْتَسِيَانِ بِحَمْرَةٍ طَفِيفَةٍ . أَصَحِّحُ هَذَا ،
أَمْ وَهْمٌ وَتَعْلِيلٌ ؟؟

فِي أَسْبُوعِ الْإِمْتِحَانَاتِ تَرَكْتُ الْفَتَاةَ فِرَاشَهَا فَجَاةً .
إِشْتَرَكْتُ فِي الْإِمْتِحَانَاتِ ، وَنَالْتُ عِلَامَةً جَيِّدَةً ،
وَحَصَلْتُ عَلَى شَهَادَتِهَا بِإِمْتِيَازٍ . وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَسْعَدَ
يَوْمٍ فِي حَيَاتِي . لَكِنِّي مَا زِلْتُ أَتَسَاءَلُ عَنْ أَسْبَابِ
مَرَضِهَا وَشَفَائِهَا الْمَفَاجِئِ ، حَتَّى أَخْبَرْتَنِي سَرّاً أَنَّ
جَدَّتَهَا كَانَتْ قَدْ هَيَّأتْ لَهَا عَرُوساً مَثَرِيّاً طَلَبَ أَنْ
يَتَزَوَّجَهَا وَيَسَافَرَ بِهَا إِلَى « أَفْرِيقِيَا » فِي خِلَالِ
أَسْبُوعَيْنِ ؛ فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ مَرَضَتْ ، أَوْ تَمَارَضَتْ ،
حَتَّى غَضِبَ الْعُرُوسُ ، وَتَزَوَّجَ غَيْرَهَا وَسَافَرَ إِلَى
« أَفْرِيقِيَا » !

*

لَمْ تَمْرُضْ « هِيَامَ » مِنَ الدَّرْسِ وَالْإِرْهَاقِ ، بَلْ مِنْ
جَوْ الضَّغْطِ الَّذِي رَافَقَهَا فِي مَنْزِلِ وَالِدَيْهَا . كَشَفْتُ
لِي أُمُوراً لَمْ أَعْرِفْهَا . حَدَّثْتَنِي عَمَّا كَانَ بَيْنَ وَالِدَيْهَا
وَجَدَّتِهَا مِنْ نَفُورٍ مُسْتَحْكِمٍ . وَصَفْتَ لِي حَالَةَ
الْخُضُوعِ الَّتِي تَلْتَزِمُهَا أُمُّهَا وَجَدَّتُهَا وَتُخْفِيَانِهَا عَنْ
النَّاسِ كِبَرًا وَتَجَبُّرًا . قَالَتْ إِنَّهُمَا تَرْضِيَانِ بِهَذِهِ الْحَالَةِ
لَأَنَّهُمَا تَجِدَانِ عَوَضًا فِي حَيَاةِ التَّرَفِ وَالرَّفَاهِيَةِ . أَمَّا
هِيَ ، فَلَا تُغَرِّبُهَا حَيَاتُهَا هَذِهِ ، بَلْ تَرِيدُ أَنْ تَكُونَ
حُرَّةَ نَظِيرِ الْعَصْفُورِ الَّذِي تَقَلَّتْ أَغْنِيَتُهُ . لَقَدْ
وَجَدْتَ الْعَمَلَ الَّذِي يَمْنَحُهَا سَعَادَةً ، وَيَنْقُذُهَا مِنَ
الْقَلْقِ وَالضَّيْقِ اللَّذِينَ يَسِيطِرَانِ عَلَيْهَا فِي بَيْتِهَا
الْوَالِدِيِّ .

كَانَتْ أَصْغِي إِلَيْهَا مُبْتَهِجَةً . وَإِذَا أَلْقَيْتُ عَلَى
عَيْنَيْهَا نَظْرَةً نَافِذَةً ، لَحَتْ فِيهَا ذَاكَ اللَّهْيَبِ الَّذِي
كَانَتْ أَلْحَهُ فِي عَيْنَيَّ « لَيْلَى » .

كَانَتْ « هِيَامَ » مَلْتَهَبَةً الرُّوحِ بِنَارِ خَفِيَّةٍ لَا نَعْرِفُ
كَيْفَ تَأْتِي ، وَلَا مِنْ أَيْنَ تَأْتِي ، لَكِنَّهَا تَجَرُّفُ كُلَّ
مَا يَقِفُ فِي طَرِيقِهَا ، وَلَا تَدَعُ مَكَانًا لَشَيْءٍ آخَرَ .

جميع فصول السنة ، وكل من اشتهى التَّبَوَلة من نساء وبنات وطلابِ أنسٍ ما عليه سوى أن يَقْصِدَ « هندومة » ، فتبيعه الخضر النَّدِيَّة بأسعار معتدلة .

لم تقتصر مكاسبها على ما تجنيه من بيع البَقْل والخضر ، بل إنها تبيع البيض والفراخ . وتعلِف خروفاً تخزُن دهنه للشتاء ، وتغزل صوفه . وهي تشتري الصوف ، وتحوك منه الجوارب والقمصان وتبيعه للمترفين من أهل القرية .

كان لها زوج وثلاثة أولاد . وبفضل شهرتها في الحي ، وأهميتها في البيت ، غلبت نسبة الأولاد إليها بدلاً من أبيهم ، فهم « إبراهيم هندومة » ، و « مرتا وراحيل هندومة » . أمّا زوجها « فارس » فكان رجلاً بديناً ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، يعمل في حرفة البناء من زمن طويل ، فيسمونه « المعلم فارس » . وكان ضخم التقاطيع ، بارز العينين ، على جانب كبير من البشاعة ، لكن

الفَدِيَّة

ليس في القرية من يجهل « هندومة » . فاسمها أشهر من نار على علم . ولو سألتها لِمَ وكيف نالت هذه الشهرة لم تستطع الجواب ، لأنها لم تفكر يوماً في الشهرة ولا في أسبابها . لكن أهل الفضول في القرية يحاولون اكتشاف الأسباب ، فمنهم من يردّها إلى طرافة الاسم : « ليس في القرية هندومة أخرى » ؛ ومنهم من يرى شهرتها مرتكزة على بيع لوازم التَّبَوَلة واحتكارها لهذه التجارة في قريتها ؛ فعندها في البستان الملاصق للبيت ، والذي لا تزيد مساحته على خمسة أمتار مربعة ، ينمو البقدونس والننع والبصل والبندورة والليمون الحامض في

زوجته كانت تراه آية في الجمال ، وتشكر الله الذي منحها إياه .

على أن في « فارس » خصلة لم تعجبها : فهو مدمن الدخان والعرق ، وهي عادة إذا لم تؤثر في صحته فقد أثرت في جيبه ، واستهلكت كثيراً من النقود التي تدرّها حرفته . وربما زاده استرسالاً في غيه تساهل زوجته ، فهي ، مع شدة حرصها وشكواها من تبيذه ، تجور على نفسها لكي ترضيه ، وتجد لتصرفه الأعذار المبررة ، فتقول لجاراتها :

- أَلرجال لا يستطيعون ضبط نفوسهم كالنساء .
وليس لهم صبر مثلنا .

حين يعود من عمله مساء تُهرع للقائه : تقدم له الماء الساخن ، وتغسل رجليه ، ثم تناوله ثياباً نظيفة بدل ثيابه المبللة بالعرق . وإذا كان في الخزانة بضع بيضات قلتها جميعاً في السمن وقدّمتها للزوج والأولاد ، واكتفت هي بالجبن والزيتون ، أو

أكلت فضلاتهم ، وباتت مغتبطة بهذا الحرمان .

حاولت التشبّه بأصحاب الثروة وكبار القوم ، فملأت بيتها أثاثاً حشوته في الغرف بشكل يخلو من الذوق ؛ لكنّها لم تخش الظهور أمام الناس بثياب قديمة بالية لاعتقادها أن المرأة ، متى تزوّجت ، لم تعد في حاجة إلى الاهتمام بمظهرها ، لاسيّما إذا كان عندها بنات . وبذلك استطاعت أن توفر لبناتها من المال ما أمكنها من مشتري كمية من الحلوى الذهبية ، فكانتا تمشيان في شوارع القرية وقد اكتست معاصمهما بالأساور الرنّانة ، ونحورهما بالعقود اللمّاعة ، ممّا جذب إليهما أنظار الخاطبين ، ومهدّ لهما سبيل زواج باكر .

لكنّها صدمت في آملها بزواج الصبي . فقد انتقت له فتاة من ذوي قُرْباهها ، كانت تصطنع أمامها النشاط والحركة ، وتظهر لها الحب والإعجاب ... ولكن سرعان ما تغيّرت طباعها بعد الزواج ! لقد صدق من قال إنّ البنت صندوق

مقفَل ! فالكنّة فتاة نؤوم كسول ، تُضمّر غير
ما تظهر ، تتّكل على حمايتها في كلّ شيء ، ولا يهتمّها
اقتصاد ولا توفير . منذ يوم دخولها أخذت تتأفّف
وتقول :

- إنّ الطبخ على الحطب متعب جدّاً . لماذا لا
نشترى بابور كاز ؟ وهذا القنديل الذي يحتاج إلى
تنظيف وتعبئة كلّ يوم ، ألا يمكن استبدال
الكهرباء به ؟

لكنّ « هندومة » وقفت حاجزاً منيعاً في وجه
كلّ تجديد ، وأخذت تردد :

- كما عاش أجدادنا يجب أن نعيش .

ثم تدقّ صدرها وتقول :

- أنا أطبخ على الحطب ، وأنا أنظّف القنديل ،
وأوقد السراج لأقرّص العجين قبل طلوع الضوء ...
كوني مرتاحة !

ومع أنّها كانت تكره كُنّتها أشدّ الكُره ،

وترى عيوبها مضخّمة ، لم تجد حرجاً في مُهالفتها
وملاطفتها ، فلا تناديهما إلّا بقولها : « يا عيوني ،
يا بنتي » ، لعلّها بذلك تُغريها بالشغل وتجنّب
إليها التوفير .

إحتملت « هندومة » خيبتها بصبر ؛ وظلّت تقوم
بأشغال البيت التي أهملتها كُنّتها ، وتجتنب كلّ
مشاجرة خوفاً من أن تثير حالتها فضول الناس
وشماتة الحساد . وكان زوجها قد أُصيب بمرض في
عينيه أقعده عن العمل ، فكانت هي وابنها ، الذي
اتّخذ حرفة أبيه ، يحصلان بشغلها ما لم يمكن
تحصيله في عهد نشاط الوالد . ورغم تقدّمها في السنّ
بقيت تجور على نفسها ، وتكتم الأوجاع التي هاجمتها ،
وتواصل أعمالها من بيع وحياسة ، حتى هزل
جسمها ، وغارت عيناها في محجّريهما . وأخذت
الجارّات يتساءلن : « ما بال هندومة تذوب كالشمعة ؟ »
وسألتهما إحداهنّ :

- ماذا أصابك يا « هندومة » ؟ ما هذا الهزال ؟

فأجابت :

- لا شيء ... جسمي مثل الحديد والحمد لله .
لكنّ الأيام تغيّر الإنسان ... وهل رأيت عجوزاً
تعود صبيّة ؟

وكانت تقول لنفسها : « نحن بألف خير . فقط
أرجو من الله أن يبعد الأمراض ، ويردّ عنا عيون
الحاسدين ! » لكنّ دعاء « هندومة » ظلّ هذه المرأة
عقيماً : فقد انتشر في القرية داء الحمّى ، وأصيب
به حفيدها البكر الذي دعوه « فارساً » ، تيمناً
باسم جدّه ، وكان أحبّ أحفادها إليها لأنّه الصبيّ
الوحيد بين ثلاث بنات . واشتدّ مرضه اشتداداً
أشاع القلق والخوف في نفوس من حوله . وكانت
الجدّة أشدّهم خوفاً وهلعاً : فقد انهارت عزائمها
دفعاً واحدة ، وهي التي عرفت فيما مضى بالصلابة
ورباطة الجأش ، وصارت كريشة في مهبّ الريح ،
تفرك يديها وتردّد من غير وعي : « كلّها إصابة
عين . لا شيء يخرب البيوت كالحسد ! لقد أصابونا

بسهامهم رغم نعل الفرس المعلّقة فوق الباب منذ
أربعين سنة ! ولكن لا بأس !.. سندرّ كيدهم
بإذن الله ! »

أخذت تسهر الليالي بجانب الولد المريض : تعُدّ
أنفاسه ، تسقيه الدواء ، وتأبى أن يشاركها أحد في
تمريضه ، تجلس مشعّثة الشعر ، غائرة العينين ،
لا تذوق طعاماً ، تقرع صدرها وتصلّي إلى الله لكي
يشفيه : « يا إلهي ! أيموت الصبيّ وتبقى البنات ؟ ...
لا فجيعة أكبر من هذه ! اشفق علينا يا إلهي ! »

والصبيّ ، تلك الليلة ، في غيبوبة مستحيمة ،
قد ألهمت رأسه الحمّى ، وضاق تنفّسه ، وجحد
في سريره كقطعة من خشب . والجدّة راکعة
بجانبه ، ملهوفة القلب ملتاعة ، تتقلّ عينيها من
فراش الولد إلى سقف الغرفة كأنّها تستمطر مراحم
السماء . وفجأة خطر لها خاطر ، فنهضت مسرعة .
ومن غير أن تلتفت إلى ثيابها المهلهلة ، وإلى شعرها
المتشعث ، خرجت إلى العراء ، واندفعت راكضة

نحو الكنيسة المجاورة ، فأيقظت الخادم الذي ما زال نائماً ؛ حتى إذا فتح لها الباب دخلت وانطرحت قرب المذبح ، وعفّرت جبينها ، ووضعت هناك حليتها الوحيدة : زوجاً من الأقراط ورثته من أمّها . ثم قرعت صدرها وردّدت قائلة : « إذا كان لا بدّ من روح تأخذها فلتكن روحي يا إلهي ! خذها ! خذها واشفِ الولد ! » ثم عادت إلى البيت تجرّ رجلها ، وانهارت على الأرض فاقدة الوعي .

*

وفي اليوم التالي كان أهل القرية يتناقلون خبر أعجوبة حدثت في بيت « فارس » . فإنّ الحفيد الصغير أصبح وقد زالت عنه الحمى وتماثل إلى الشفاء ، بينما كانت جدّته تلفظ أنفاسها الأخيرة . وكان الجميع يرددّون القول : « مسكينة ! قد استجاب الله دعائها ، وأخذ روحها عوض الصبي » .
وبهرم ذكر الأعجوبة ، فلم يحاولوا أن يجدوا لموتها سبباً آخر .



البَيْتُ الْقَدِيمُ

قالت « نائلة » وهي تضع يدها على مقود
السيّارة :

- ألا تشعرين برغبة في الهرب من جوّ المدينة
الأغبر؟ تعالي أحملك بسيّارتي إلى قرّيتي الساحليّة
المواجهة للبحر ، لا يفصلها عنه سوى بساطٍ دائم
الخضرة . نحن الآن في أوائل الربيع ، وسيطيب
لنا الاستمتاعُ بمفاته المتنوّعة ، وأشدّها فتنةً ، في
رأيي ، أشجارُ اللّوز متلفعةً بأثواب عرسها الناصعة
البياض ...

قلت :

- تتكلمين كشاعرة ، مع أنك بغير حاجة إلى
الشعر لتُغرّيني بمرافقتك . ها أنا مستعدة للرحلة
بعد أن أعتمر قبّعتي التقليدية أتقي بها شمس
القرية .

كنا ، ونحن نتقدّم نحو المكان المقصود ، نشعر
بأنّ هواء جديداً يتغلغل في صدورنا ، يكتسح منها
الأفكار السوداء ، ويُسبغ عليها خفّة المنعشة .

ما عتّمت السيّارة أن دخلت بنا في طريق
ضيّق نبتت عن جانبيه أعشابٌ نديّة ، وفي نهايته
بدا لنا البيتُ القديم يحِفّ به بستان مدرّج حوى
أنواعاً من الأشجار الساحليّة المثمرة : البرتقال ،
الأيّك دنيا ، اللوز ، الزيتون ، الرمان . وما هي
إلاّ لحظةٌ حتى فتحت « نائلة » البوّابة الحديد
ودخلنا .

وقفت أتأمل سرّاً الجمال في البيوت القديمة .
الدرجات التي نصل إليها إلى البيت مصنوعة من
حجارة عريضةٍ ملساء ، يتأوج لونها بين الصّفرة

والبياض ، وقد نبت في الشقوق التي بينها خطوطٌ
رفيعة من العشب الأخضر الطحليّ . ما أبعدنا
هنا عن سلام الأسمنت المصبوبة في قوالب مُصمّنة ،
لا انفراجٍ بينها ، ألوانها رتيبة قاتمة ، لا تموّج ولا
لمعان ... هذه البيوت القديمة أبنية مقدودة من
صخورنا ، مقتطّعة من قلب الأرض ، راسخة
رسوخ الطبيعة . كلُّ حجر فيها يحمل أثراً من
الأيدي التي لامسته ، والأرجل التي وطئته ، يبعث
نفحةً من النفحات التي تنشقّها الأجداد !.. يحكي
حكاياتهم !..

كنت غارقة في التفكير ، أنتقل كالشبح من
غرفة إلى أخرى من غرف البيت القديم ، حين
وقفت بي « نائلة » في الرّدهة وقد بدا في
سقفها آثارُ الدخان المنبعث من الموقد الذي كان
يتوسّطها .

قالت « نائلة » :

- كنت أحسب نفسي أبعد الناس عن الخضوع

لسحر الذكريات والأحلام العاطفية ... في المدرسة
انجرفت بتيّار العلوم الطبيعية والرياضية ،
وأصبحت شديدة النفور من دنيا الأشباح والأرواح ؛
بل خطر لي تأليفُ جمعية « اللاعاطفيين » ، أو
أعداء العاطفة . كنت حينذاك ثائرة على مغاليات
الرومنطقيين ورقّتهم المصطنعة ، ولكن ... حين
أزور هذا البيت تنتابني رعشة ، وتنبعث في ذاكرتي
صورٌ ومشاعرٌ غريبة ... أحسّ برغبة في لمس
الحجارة وتقبيلها .

توقّفت « نائلة » لحظة تستجمع أفكارها ، ثم
قالت :

— هنا ، على هذا المقعد الذي لم يبقَ منه إلا
هيكلٌ مهتدّم ، كان يجلس جدّي متربّعاً وبجانبه
أركيلةٌ دائمة القرقرة لا تفارقه ، وعلى رأسه
طربوشه القاتمُ الحُمْرة محاطاً بلفّة صغيرةٍ سوداء ،
دليلَ حداد دائم . في أيام البرد ينعم بدفء الأركيلة ،
ودفءِ الموقد النحاسي الكبير ، ودفءِ العباءة

المصنوعة من وبر الجمال ، فيشبهه في جلسته على المقعد
الواسع الوثير أميراً من أمراء العهد الشهابي .

« كان جدّي كثير الصمت والتأمل ، هادئ الوجه
والحركة ، تجمّعت في نظراته حكمةُ السنين . إذا
خاطبنا انفرجت شفتاه عن ابتسامة معسولة ،
وفاضت في كلماته رنة العطف الذي ملأ قلبه نحونا .
أصبحُ أن في الشيوخ تلهفاً وشوقاً إلى أيام
صباهم ، يتجسّد في حبّهم للأحفاد وسواهم من أبناء
الجيل الجديد ؟

« كنت ألمح في نظراته الهادئة حناناً يلقي على
وجهه الأسمر المُشرب بالحمرة إشراق الصبا
وزهوته . ومع هذا كنّا نزداد منه نفوراً كلّما
ازداد رغبة في محادثتنا والتحبّب إلينا . ولا أستطيع
تفسير ذلك النفور . أترأه شعوراً غريزياً عند الولد
الشديد الإحساس بفارق السنّ والمظهر ؟ أكنّا نهرب
من رائحة أركيلته التي تغلّغت في ثيابه الكثيرة
الطيّات ؟ أم كان نفوراً تسرّب إلينا من والدنا

العصيّ المزاج ، السريع التأفّف ، القليل الرغبة في
عشرة الناس ، لاسيّما عشرة حميه الدّمث الخلق ،
الكثير الملاينة والتّؤدة ؟

« كانت أمّي ترى في والدها مثلاً أعلى لأنّها
كانت أثيرة عنده ، يحبّها أكثر من سائر أولاده .
إذا أرادت مشترى أثاث أو قماش اعتمدت على ذوقه
لأنّه كان في شبابه تاجراً . وكنت في الثامنة
عشرة حين أوصته بأن يشتري لي قماشاً لفستان
العيد . كان هذا الفستان من حرير شديد النعومة ،
باهر الألوان . قالت أمّي إنّهُ أجمل فستان لبستهُ في
حياتي ... يكفي أنّه نال إعجاب كلّ من رآه ،
وجذب حولي أنظار الخاطبين ، فلم تمض السنة حتى
تزوّجت . ومع هذا لم يحظَ جدّي بكلمة شكر
أوّجها إليه . رأيتُ عمله واجباً لا يستحقّ الشكر ،
ورأى في موقفي تزوّة من تزوات الصبا ، فلم يقابلني
إلاّ بالابتسام . »

هنا لحتُ في صوت « نائلة » تهدّجاً يدلّ على

حزن عميق ، ورأيت الدموع تكاد تطفر من عينيها
حين قالت :

— عاش هانئاً ، صابراً ، راضياً بالكفّاف . كان
يقابل رُعونتنا بابتسامة سَمحة فلم تجرحه تصرّفاتنا
الصبيانّيّة ، وهذا ما يعزّيني . لكنّ قلبي ينعصر
ألماً كلّما ذكرتُ خشونتي نحو ذاك الرجل
الكبير .

توقّفتُ « نائلة » فجأة أمام صورة معلّقة على
الجدار ، حال لوُنّها حتى اندمج بلون الجدار
التراي .

— إنّها صورة جدّتي ، وهي ، رغم زوال معالمها ،
تكشف بعض ملامح صاحبّتها ، وتريك شيئاً من
شخصيّتها الفدّة . ما زالت عيناها تتكلّمان ، وقامتها
النحيلة تستعدّ للوثوب ... كانت سيّدة البيت دون
منازع ، تملّأه بحيويّتها ونشاطها ، فهي الطاهيّة
والمربّيّة والحيّاطة والمدبّرة . سمّيناها « الحركة
الدائمة » لأنّنا لم نرها إلاّ منهمكةً في أحد الأعمال

المنزلية التي تجلّى فيها نبوغها ... شعارها :
« من اشترى المليح اشترى ماله » ، فكانت لا تشتري
إلا القطعة المتينة التي تقاوم الدهر . أنظري
خزانتها ... (وأشارت « نائلة » إلى خزانة كبيرة
جوزية اللون) لقد عاشت هذه الخزانة ستين سنة ،
وتستطيع أن تعيش ستين أخرى . وقد حرصت
جدتي على تنظيفها وتلميعها والمحافظة عليها ، لأنها
كانت مولعة بالنظافة حتى الوسواس . إذا نظّفت
الأرض أو المجلّى أو الصحون ، يجب أن تخرج من
بين يديها كما خرجت من يد صانعها الأوّل ، تلمع
وتصفّق شكراً للأيدي الساحرة التي نظّفتها .

« قبل أن أنسى ، يجب أن أخبركِ بجاذبة السّلم
التي كادت تفقد فيها حياتها .

« كان ذلك قبيل العيد الكبير ، حين تقوم
نساء القرية بالتنظيفة الكبرى التي تستغرق عدّة أيام .
يقلبن كلّ شيء رأساً على عقِب ، ولا يتركن زاوية
أو سقفاً أو جداراً إلاّ أمررنّ عليه المكنسة ، أو

المسّعة ، وهي سّعة نخل تنظّف بها السقوف
الشديدة الارتفاع آنذاك . وقد انتهت جدتي من
أعمال التنظيف المضنية ، وجلست على المقعد الكبير
الموازي لجدار الردهة ، لتستريح من أعمالها كما استراح
الله في اليوم السابع . وكان جميع سكّان البيت قد
خرجوا لقضاء النهار في السهل ليتفرّجوا على ديدان
القزّ ، أو ديدان الحرير ، وهي مُقبلة على التهام
ورق التوت بعد صيامها الأوّل ، وقد حملوا معهم
سلّة يملأونها من ثمار التوت الحلوة البيضاء التي
يدعونها « الكبوش » . وفيما كانت جدتي تلقي على ما
حولها نظرة ارتياح ، رفعت نظرها إلى أعلى جدار
غرفتها المواجه للردهة ، وما راعها إلاّ عشبة
خضراء عريضة الورق - يسمونها القزيزة - تطلّ
من الشراقة الوحيدة التي تنفذ منها الشمس ،
تمدّ فروعها وتتحدّى جدتي بنظرة سخريّة
واستعلاء .

« يا لها من عشبة وقحة ! كيف استطاعت أن

تنمو وتمدّ عروقها في ذاك المرتفع عن غير أن
يدري بها أحد؟! عشبّة في أعلى جدار الغرفة ،
تستطيع أن تحفر وتمتدّ وتتغلغل في قلب الجدار
وينتهي أمرها بهدمه ! لا بدّ من القضاء عليها !

« هكذا فكرت جدّتي . وقفزت عن مقعدها
تلك القفزة العصبية التي تحوّلها إلى بركان يغلي .
حملت السلم الخشبيّ الطويل المسند إلى الجدار
الخارجيّ الذي يصعد منه إلى السطح . أسندت
السلم إلى جدار غرفتها ، وتسلّقت به بحفّة الصبيّ
المراهق . ثم وضعت قبضتها الحديدية على العشبّة
الملعونة ، وبحركة عنيفة اقتلعتها من جذورها . وإذا
بالسلم يتحرّك ويهتزّ ، ويأخذ في الهبوط منزلقاً
على الأرض الملساء ، مهدّداً إيّاها بموت محتوم . فما
كان منها إلّا أن ألقت بنفسها من أعلى السلم ،
ساجدة في الجوّ من علوّ نحو عشرة أمتار ! وبلغت
الأرض سالمة ، في حين كان السلم يهوي ويصل إلى
الأرض ، منطرحاً عليها بقرعة عظيمة ، فيعيد إلى

الذهن ذلك التّنين الذي طعنه فارس الحكاية
فسقط صريعاً بعد أن أطلق صيحة ارتجّت لها
الأرض ! ..

« حين عاد أعضاء الأسرة إلى البيت وأخبرتهم
بما حدث ، ظنّوا نجاحها أعجوبة . وتفقّدوا مفاصلها
وأطرافها لعلّ فيها كسراً أو التواء ، فلم يجدوا
فيها أيّة علة .

« وظللنا بعد ذلك بمدة طويلة نتنادر بحادثة
السلم التي سمّيناها « حادثة الطيران » ، فنسأل
جدّتي :

- أخبرينا يا جدّتي كيف طرت ؟ كيف
هويت كالنجم من أعلى إلى أسفل ؟ وبماذا شعرت
حينذاك ؟

« فتجيب :

- لا أدري . سلّمتُ أمري لله فانقذني .

« وقلّت :

- سقطت كالمِظَلَّيْنِ . لا أرى إلا أن
تتورتك الواسعة الفضفاضة انفتحت كالمِظَلَّة
لتهبط بك إلى الأرض هبوطاً رقيقاً ، سليماً ،
رائعاً ! ...

« فتضحك وتقول :

- لم أفكر في هذا قط .

« وتقول أمي لها :

- كلّ الحقّ عليك ! لو لم تكن الأرض شديدة
الملاسة من كثرة الفرك والحفّ ، لما انزلق عنها
السلم .

« وقال أبي :

- لو لم تقفز في الجوّ لهويت مع السلم
وتكسّرت عظامك !

« قلت :

- وذهبت شهيدة النظافة !

« فتجيب جدتي :

- نعم . الاستشهاد في سبيل النظافة أعظم
استشهاد ...

« إلى جانب ولعها بالنظافة كانت مولعة بالعمل
في البستان ذي الأشجار المثمرة ، تقضي فيه شطراً
كبيراً من وقتها ، مكبّةً على نقش الأرض وسقيها
وتعشيبها ، وتشذيب الأشجار .

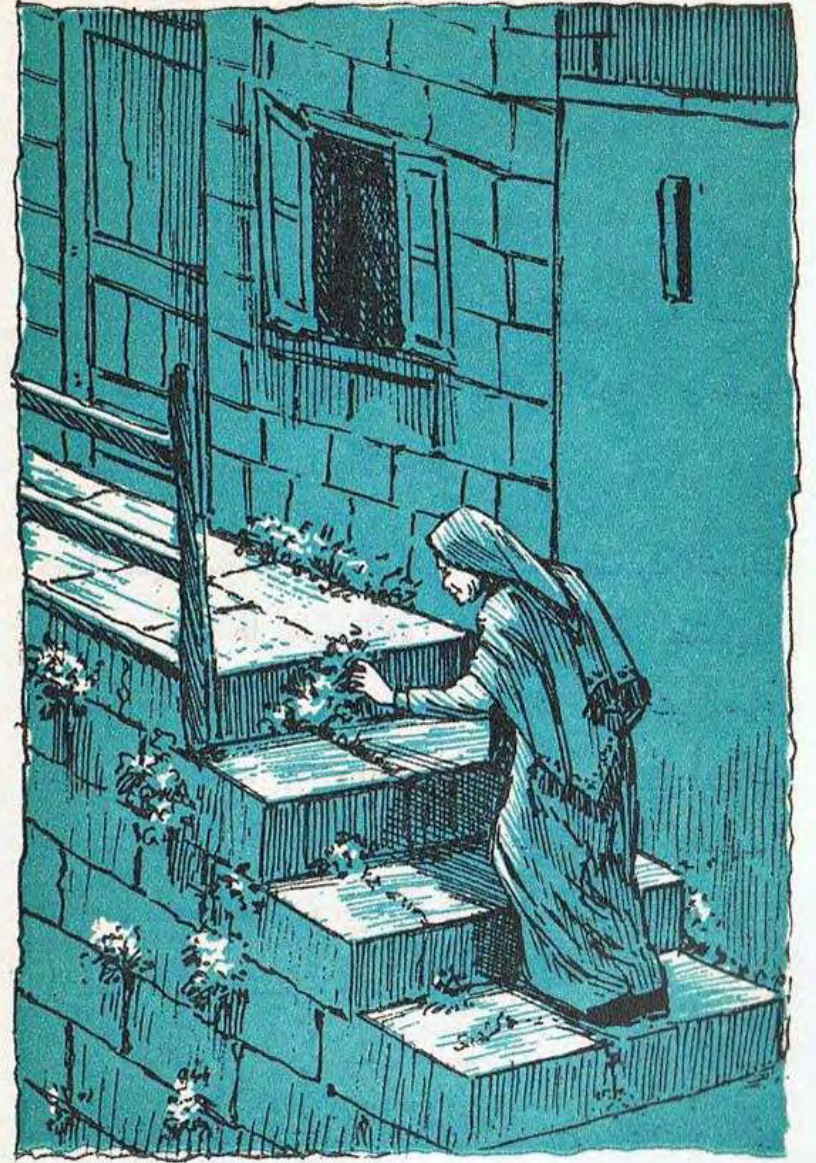
« كلّما نهضت من فراشها صباحاً فتحت النوافذ
وصوّبت نظرها نحو الأفق تستطلع حالة الطقس .
في فصل الشتاء يُشرق وجهها إذا وعدت الساء
بالمطر ، ويكمدُّ إذا رأت المطر بعيداً . وفي أوقات
الجفاف يستولي عليها ذهول وانقباض لا يفارقانها
حتى عودة الأمطار ، فيعود إليها مرحها ونشاطها .
رَزِقَتْ اثني عشرَ ولداً - كما تقول - مات أكثرهم
في سنّ الطفولة ، ولم يسلم منهم إلا خمسة . تزعم
أنّهم جاءوا في السنين العجفاء ، سني القحط التي

طال فيها انحباسُ المطر ، فولدوا ضعافاً ، فاقدى
النشاط ، قليلى التغذية .

« كانت بنتها الصغرى «رضا» فتاة في مثل عمر
أحفادها . ولدت بعد زواج أمي ، بكر الأسرة ،
بيضع سنوات . كانت طويلة القامة كأُمها ، نحيلة ،
شَمْعِيَّة اللون ، شديدة الإحساس بتقلُّبات
الجوِّ . ورغم حرصها على صحتِّها كانت سريعة
العطب ، تنتابها أعراض وأوجاع مختلفة ، فتقول
الأم :

— « رضا » ولدت في سنة قحط . وعاشت رغم
الزمن .

« كانت الفتاة تُنفِق أكثر وقتها في مطالعة
قِصص الجنِّ والسَّحرة ، ترويه لئلا بشيء من
التحويل والتزويق . وبأصابعها الطويلة ، الرشيقة ،
تصنع لعباً وأزهاراً وأشياء أخرى تخترعها وتعطيها
أسماء غريبة ، فتُهدينا مصنوعاتنا ، وتهمس في



- لست من طِوالِ العمر . أريد توزيع تركتي قبل أن أموت . قرأتُ حظِّي في ورق اللعب ، قرأتُ في فنجان القهوة وفي كتاب النجوم ، فتبيّن لي أنني لن أعيش بعدُ أكثرَ من سنتين .

« لم يمضِ على هذا الحديث أكثرُ من سنتين حتى تحقّقت نبوءة الفتاة . أصابها مرض غريب ، فلزمت الفراش وأصبحت عاجزة عن المشي . وأقامت أمها بجانبها تعالجها وتقضي حاجاتها من غير أن تُهمل أعمالها البيتيّة .

« كانت جدّتي ، حين مرضت بنتها الصغرى ، امرأة متقدّمة في السنّ ؛ فقدت زوجها منذ حين ، وبقيت وحدها في البيت القديم مع هذه الفتاة التي كانت في نظرها بمثابة شجرة من شجرات البستان ، تتعهّدها بعنايتها ، تقف على خدمتها أكثرَ ساعات نهارها وبعضَ ساعات ليلها ، فلا تذوق راحة

ولا تعرف استكانة ، لأنّها تنتقل من غرفة « رضا » إلى البستان ، ومن البستان إلى غرفة « رضا » .

« وأخذت « رضا » تذوب كالشمعة ، وأمّها واجدة ، مسبلةُ الجفون من التعب والإرهاق ، أو من الهمّ والقلق . أخيراً ، في صباح يوم ربيعيّ ، انطفأت « رضا » . رقدت رقدتها الأخيرة ، وفي وجهها صفاء الربيع ونقاء العطور . من ذلك الحين أيقنتُ أنّ الموت يستطيع أن يكون شيئاً جميلاً .

« على أثر موتها انهارت جدّتي دفعة واحدة . إنهارت مثل لوح زجاجيّ تفتّت قطعاً لا سبيل إلى جمعها . نفد الزيت من سراجها يوم ماتت « رضا » ، فلزمت هي أيضاً فراشها ، منهوكة لا تقوى على المشي . لكنّها ، رغم وَهْنها ، كانت تنهض من فراشها أحياناً على غير وعي ، متوكّئة على الجدران ، تتفقد البيت وتُمرّ يدها على الخزائن

والمقاعد وباقي الأثاث لترى أنظيفة هي كما كانت أم
علاها الغبار ؟

« وأخذت تجازف في الخروج إلى الشرفة ،
لتطلّ على البستان وتعاين شجراته . ثم تنزل
السلم الحجريّ وتدنو من هذه الشجرة وتلك ،
تلاحظ مقدار نموّها وحملها . حتى وجدوها
أخيراً ميتةً تحت شجرة الرمان القريبة من
الدرجات التي طالما ارتقتها صعوداً ونزولاً إلى
البستان .

« ماتت جدّتي معانقةً الشجرة . ولا أشكّ في
أنّ عروق جسمها امتدّت بعيداً لتتصل بجذور
شجرات البستان ، فتغذيها برؤفاتها كما غذّتها في حياتها
وأحبّتها حتى الفناء ... »



وفركت « نائلة » عينيها كمن يستيقظ من حلم ،

ثم قالت :

- رأيت سبب حرصي على هذا البيت
القديم ؟ لقد عايشته فيه أشخاصاً ما زالوا
أحياء فيّ ، وسأظلّ أعيشهم في ما بقي لي من
سنين .

خلف الستار الفضي

« ألف سنة في عينك يا ربُّ
مثل أمس الذي عبر »

رأيت في الحلم أنني مُتُّ المِيتَةَ التي أحلُمُ بها .
إنطفأت روحي في الجسد كأنطفاء السراج الذي نفذ
زيته وذاب نوره من غير حِسٍّ ولا حركة .
وصعدتُ إلى خالقها طليقةً مستبشرة ، واستطاعت
أن تقف أمام صاحب العرش وتخطبَه متوسِّلة :

— ما دامت الحياة الإنسانية تنتهي بفاجعة
الموت ، ألا يمكن أن تجري النهاية على غير الطريقة
المأسويّة المعروفة ؟ ألا يستطيع الإنسان أن يموت

كما تموت الأزهار ، من غير عذاب المرض وألم
الاختضار ؟

فعبث الباري تعالى بلحيته البيضاء ، وقال :

- إِنَّكَ مِنْ شَعْبٍ غَيْرِ حَرْبِيٍّ ، لَمْ يَتَعَوَّدِ الصَّبْرَ
عَلَى الْأَلَمِ .

أجابت روعي :

- نعم . إِنِّي مِنْ شَعْبٍ لَمْ يَخُضْ غَمَارَ الْحُرُوبِ ،
لَكِنَّهُ احْتَمَلَ أَلَمَ الْعِبُودِيَّةِ وَصَبَرَ عَلَيْهَا طَوِيلًا وَلَمْ
يَثُرْ . وَفِي رَأْيِي أَنَّ مِنْ وَاجِبِ الْإِنْسَانِ أَنْ
يَثُورَ عَلَى الْأَلَمِ مَهْمَا كَانَ نَوْعُهُ ، جَسَدِيًّا كَانَ أَمْ
نَفْسِيًّا .

فقال :

- إِنَّ لِلْأَلَمِ فَوَائِدَهُ ، وَهُوَ فِي الْحَيَاةِ ضَرُورَةٌ .

فتابعت روعي الجدال قائلة :

- إِنَّ الْأَلَمَ مُفِيدٌ إِذَا كَانَ مَثِيرًا لِلْكَفَاحِ . وَلَكِنْ

ما فائدةُ أَلَمِ المريض والمحتضر ؟
فأجاب الخالق :

- إِنَّ أَلَمَ الْمَرِيضِ حَافِزٌ لَهُ وَلِغَيْرِهِ عَلَى مَكَافَحَةِ
مَرَضِهِ . لَقَدْ تَرَكْنَا لِلْإِنْسَانِ حُرِّيَّةَ السَّعْيِ ، وَمَهَّدْنَا
لَهُ سَبِيلَ كِفَاحِ الْمَرَضِ وَالْمَوْتِ ، لَكِنَّهُ يَلْهُو عَنْ ذَلِكَ
بِمَخْلُقِ أَسْبَابِ الْمَوْتِ .

وعادت روعي تسبح على أجنحة الأثير . فخطر
لها أَنْ تَجْتَازَ السَّتَارَ الْفَضِّيَّ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ ،
وَتَهْبِطَ إِلَى حَيْثُ تَرَكْتَ جَسَدَهَا مَسْجَى عَلَى السَّرِيرِ
الْخَشِيِّ الْمَوْضُوعِ فِي غُرْفَةِ النَّوْمِ . فَرَأَتْهُ مَعْرُوضًا
فِي بَاحَةِ الدَّارِ ، وَالنِّسَاءُ حَوْلَهُ مَتَلَفِّعَاتٌ بِالسَّوَادِ ،
جُلُوسٌ ، يَنْدُبْنَ وَيَقْرَعْنَ الْأَيْدِي وَالصُّدُورَ .
وَتَفَرَّسَتْ فِي الْوُجُوهِ الْكَالِحَةِ الْمَغْبَرَّةِ ، فَإِذَا بَعْضُهَا
يَصْطَنِعُ الْحُزْنَ وَالْبَكَاءَ ، وَبَعْضُ الْآخَرِ يَسْتَوْحِيهَا
مِنْ جَوْ الرَّهْبَةِ الْمَسِيطِرِ عَلَى الْمَكَانِ . فَأَرَادَتْ أَنْ
تَخَاطِبَ الْجَمْعَ الْمُحْتَشِدَ قَائِلَةً :

- مَا أَشَدَّ وَلَعَكُمْ بِالظُّهُورِ ، أَيُّهَا النَّاسُ !

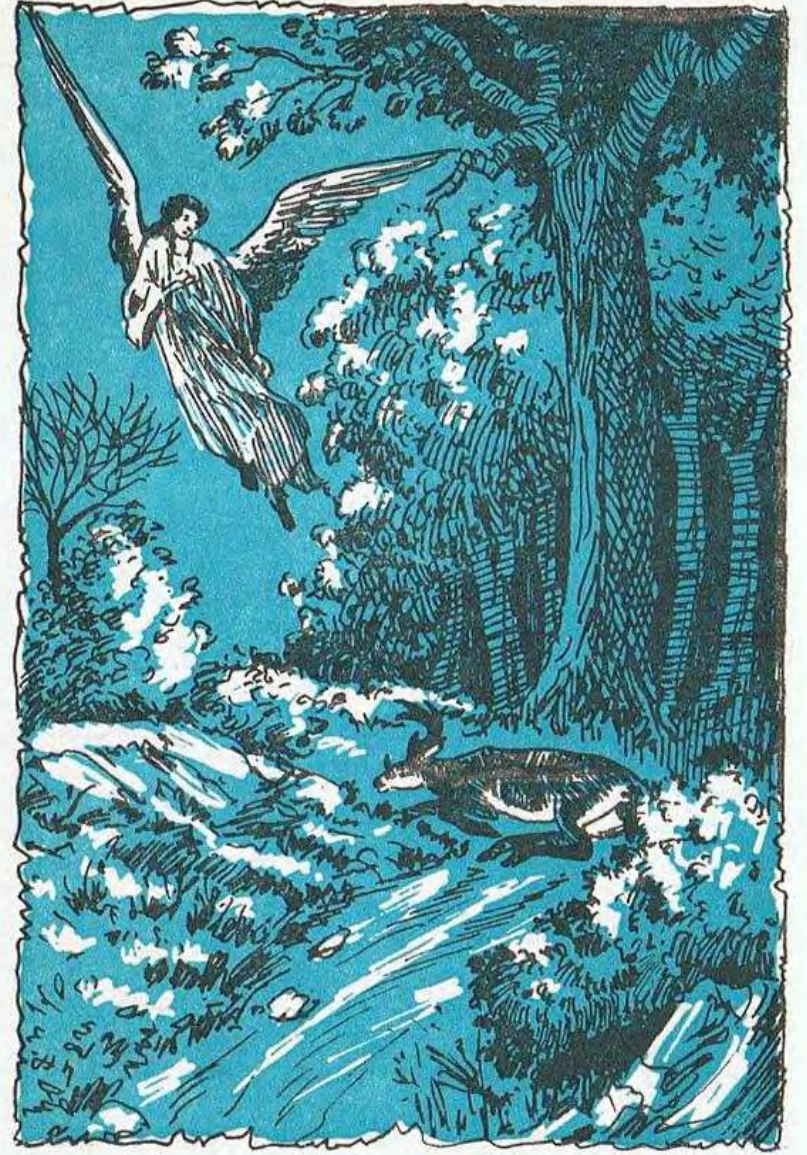
تعرضون موتاكم كما تعرضون أثاث بيوتكم... وإن
ولعكم بعرض دموعكم يضاهاى ولعكم بعرض ثيابكم ،
ويجاري حرصكم على إخفاء عيوبكم وكتّم
عللكم وأعماركم ! ألا بُس الحياةُ المزدوجة التي
تحيّون !

لكنّ أحداً لم يكن مستعدّاً للإصغاء . فقد شغل
بعض النّسوة بمعاينة أفواج المعزّين والمعزّيات الذين
تدفّقوا على الدار ؛ وغرق فريق آخر في حديث
الاستفسار عن أسباب الموت ، ومقدار التّركة
وكيفيّة توزيعها ، أو تناول أخباراً محلّية لا علاقة
لها بالموضوع . وبدخول بعض النساء اللواتي تربطنّ
بالفقيّد صلةُ الدم ، ارتفعت أصواتُ النّائحاتُ
والمعدّات ، وتوالى الشّهيق والنحيب وتصعيد
الزّفرات ، حتى تحوّلت الباحة إلى شبه ساحة حرب
عقيب المعركة ، انتثرت فيها الأشلاء ، وارتفع
الأنين ، وأطلّت عليها من كلّ جانب أرواحُ الموتى
الغابرين .

- لم البكاء ؟ قالت رُوحى تخاطب النّسوة .
إذا آمَنْتُنَّ بحياةٍ بعد الموت - وذلك ما ترمزُ إليه
صلواتكنّ وجنازاتكنّ - فخيرٌ لكنّ أن تحبّسنَ
الدموع وتُظهرن الفرح ؛ لأنّ الفقيد ، وهو بلا
شكّ من المؤمنين ، قد انتقل من دار فناء إلى دار
بقاء ، من وادي الدموع إلى جنّة الخلود .
أمّا إذا أعوزكنّ الإيمانُ ، فالفرحُ أيضاً أولى
بكنّ ، لأنّ الموت راحة وانطلاق من ربقة
الشّهوات وشرور الدنيا وأمراضها . أتنّ تشتهين
الأطفال وتندرن لأجلهم النذور ، وما يُدريكن
ما عددُ الفتيان والفتيات الذين - حين ذاقوا
العيش - ودّوا لو لم يُولدوا ؟! كم من هؤلاء المولودين
يُحسَبُ عدمهم خيراً من وجودهم ؟!

لكنّ همّسات رُوحى ضاعت في الجوّ الخانق
الذي خيم على الجمع . وانطلقت رُوحى من مكانٍ
حسبته جحيماً ، وراحت تخلق في أجواز
الفضاء ، حتى تراءت لها بعض الأحرار الكثيفة

البعيدة عن أجواء المدن والقرى . ولحّت من خلال
الأشجار وعلاً قد بلغ أقصى الكِبَر ، منطرحاً
عند جذع شجرة ، يلفظ أنفاسه الأخيرة متطائرة في
الهواء كالهباء المنثور . لقد فني كما تفنى الحشائش
وتتساقط الأوراق . وها إنه ينتظر العودة إلى أمه
الأرض ، ليخصبها برُفاته ، فتنبّت على أصوله
المتفسّخة أشجارٌ وأزاهيرٌ بديعة المنظر . ها هو يتلاشى
من غير نأمة ولا جلبة ، وينضمّ إلى الطبيعة الساكنة
التي تخلق الطبيعة المتحرّكة وتجددُها وتُنمّيها .
فراقٌ روحي هذا المنظرُ الطبيعيّ الساذج ، وعادت
إلى حيث فارقت النسوة الصاخبات ، المتلويّات من
الحزن ، المتوتّرات الأعصاب ، تودُّ أن تلقي عليهنّ
من سكينتها ما يهدّئ ثورتهنّ . فما راعها إلاّ
موكبٌ يؤلّف ، وجمعٌ يتألّب ، وسُرجٌ توقّد ،
وشموع تُرفَع ، وكهنة جامدو النظرات في ملابسٍ
متهدّلة سوداء يتهادون مترنّمين بأصوات رتيبة
كئيبة . ويتهاذى النعش وراءهم مترنّحاً مضطرباً ،



والناسُ حوله شبه مذعورين ، في وجوههم قلقٌ
وانقباض ، كأنهم في موكب يوم الحشر .

فأشاحت روعي بوجهها متأملة ، وهتفت
بالناس بصوت لم يسمعه :
- خلّوا عنكم هذه المظاهر ، أيها الناس ! لقد
تسلّطت عليكم عاداتٌ رثّة خرقاء وساقتم بعصاها
كالقطيع ... وأنتم ، يا مَنْ تحيطون بالحوادث التي
تجري كلّ يوم بإطار من الهول ينسجه خيالكم ، متى
يأتي المصلح الذي يهدم بمعوكه حصونكم ، ويزيل
عن العقول أغشية الجهل والغباوة ؟

وضاع صوتٌ روعي في الهواء حين ارتفع صوت
خطيب فتى ، وقف في الجمع واعظاً مؤبّناً يردّد
عبارات فخمة رنانة ، طرب لها السامعون وذهلوا
عن معانيها الجوفاء .

وهمت روعي بأن تُسكته ، واقتربت لتضع على
فمه أصابعها الخفيفة ، لكنّها ، حين رأت الجوّ

مكهرباً والناس في شبه ذهول ، خافت أن يحدث ما
لا تُحمد عُقباه .

وعادت نفسي إلى الله هذه المرّة كئيبةً
مبتئسة . فإذا هو قد انتهى من تفحص أوراق
كانت تحيط به أكداً . لكن وجهه كان ساكناً
كسكون الأزل . وخيل لها أنّه كان يخطّ على
لوحٍ يجانبه : « لا تبتئسوا ولا تستعجلوا الزمن .
فلكلّ شيء أجل » .

محتوى الكتاب

الصفحة

٧	١	السجادة .
١٩	٢	... وتحطم الصنم
٣٣	٣	الحقبة .
٤٧	٤	يد القدر .
٥٩	٥	حلم « أم أمين » .
٧١	٦	ألقوا دلوكم .
٩١	٧	النار الخفية .
١٠٨	٨	الفدية .
١١٩	٩	البيت القديم .
١٣٩	١٠	خلف الستار الفضي .

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٣
على مطابع دار غندور - بيروت

رُوز غَرِيب

النَّارُ الْخَفِيَّةُ

أَقاصيصٌ وَحكايات

بيات الحكمة
بيروت